

المكتبة الثقافية

١

الكتاب العربي

المكتبة الثقافية - القاهرة

عبد الرحمن النجدي

30

0256771



Bibliotheca Al-Azhar

وزارة الثقافة
الإدارة العامة للثقافة

المكتبة الثقافية

١

الثقافة العربية

أُسْبَق من ثقافة اليونان والعبرانيين

عماس محمود العفاد

وزارة الثقافة والشباب والرياضة

الاستاذ سليم سبيتي

الإدارة العامة للثقافة

البشاشه
دار القاصم - مكتبة النهضة المصرية

تقديم المكتبة

يقتل

مروت عكاشة

وزير الثقافة والإرشاد القومي

أنه عندما تيسر للواطن مجموعة من الكتب الصالحة ، فإن ذلك معناه أنه قد تيسر له جامعة بالمعنى الصحيح .

لاشك

والكتب في أيامنا هذه أكثر من أن تسمح للقارئ بأن يتبين ما يأخذ منها وما يدع .
فالقارئ العادي لا يصبر على الأمهات التي لا يفيد منها إلا المتعمقون والمتخصصون ، والقارئ المثقف يضيق بالكتب القديمة وما تقسم به من جفاف ، والقارئ المتخصص يتوق إلى قراءة ما يخرج عن تخصصه ، والقراء جميعا تصبو نفوسهم إلى التزود بألوان المعرفة المختلفة ويسعون إلى مسامرة ركب الحضارة الراكض الذي يأتي كل يوم بجديد في كل ميدان .
فهل من سبيل أن يلتقي القارئ العادي والقارئ المثقف والقارئ المتخصص ، والعمر قصير لا يمكن أن يتسع لقراءة هذا الفيض من الكتب على اختلاف

ألوانها وأشكالها . إنهم بلا شك يلتقون إذا أتتحت
لهم مكتبة ثقافية تتناول فروع المعرفة جميعا ، ويكتبونها
كتاب قادرون ، يستطيعون أن يعالجوا ما يكتبون
بأسلوب شائق قريب التناول يتجنب المصطلحات وبنأى
عن الإغراب ويبرز الفكرة واضحة ناصعة لا لبس فيها
ولا غموض ، مع البعد عن اللغو والإسفاف .

ومن هنا نلت فكرة المكتبة التي يطيب لى أن
أقدم بها اليوم إلى جمهور القراء العرب ، مؤمنا بأن
واجب وزارة الثقافة والإرشاد القومى الأول هو
تثقيف الشعب على اختلاف طبقاته .

وقد حرصت الوزارة على تيسير هذه السكتب على
القراء جميعا ، وتشجيع كل بيت على تكوين مكتبة له
بشمن زهيد ، فأسهمت فى تكاليف المكتبة الثقافية
لمساهما كبيرا ، وجعلت ثمن الكتاب منها قرشين ،
وقد صحت نيتها على إصدار كتابين كل شهر .

وأنى إذ أقدم هذا الجهد المتواضع إلى جمهور القراء
العرب أرجو أن ينال تقديرهم ، وأرحب بكل توجيه
أو نقد يساعد الوزارة على السير بهذه المكتبة
فى طريق النجاح .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه الخير .

هرون مكاشة

حقيقة مفاجئة .. أقدم الثقافات الثلاث

وهذه الثقافات الثلاث هي : العربية واليونانية والعبرانية .

أقدمها في التاريخ هي الثقافة العربية ، قبل أن تعرف أمة من هذه الأمم باسمها المشهور في العصور الحديثة . وهذه حقيقة من حقائق التاريخ الثابت الذي لا يحتاج إلى عناء طويل في إثباته ، ولكنها على ذلك حقيقة غريبة تقع عند الكثيرين من الأوروبيين والشرقيين ، بل عند بعض العرب المحدثين ، موقع المفاجأة التي لا تزول بغير المراجعة والبحث المستفيض .

وقد كان ينبغي أن يكون الجهل بهذه الحقيقة هو المفاجأة المستغربة ، لأن الإيمان بهذه الحقيقة التاريخية لا يحتاج إلى أكثر من الاطلاع على الأبجدية اليونانية وعلى السفين الأولين من التوراة التي في أيدي الناس اليوم ، وهما : سفر التكوين وسفر الخروج ، ولا حاجة إلى الاسترسال بعدهما في قراءة بقية الأسفار .

فالأبجدية اليونانية عربية بحروفها وبمعاني تلك الحروف وأشكالها ، منسوبة عندهم إلى قديموس الفينيقي وهو في كتاب مؤرخهم الأكبر « هيرودوت » أول من علمهم الصناعات .

وسفر التكوين وسفر الخروج صريحان في تعليم الصالحين من العرب لكل من إبراهيم وموسى عليهما السلام . فإبراهيم تعلم من ملكي صادق ، وموسى تعلم من يثرون لإمام مدين ، وشاعت في السفيرين رسالة « الآباء » قبل أن يعرفوا باسم الأنبياء ، لأن العبرانيين عرفوا كلمة « النبي » بعد وصولهم إلى أرض كنعان واتصلهم بأئمة العرب بين جنوب فلسطين وشمال الحجاز .

فيحق العجب من يحمل هذه الحقيقة التاريخية المسجلة بالكتابة منذ ألوف السنين ، بل بالحروف التي سبقت الكتابة والكتاب .

إلا أن الإشاعة الموهومة كثيراً ما تطفئ على الحقيقة المسجلة . ولا سيما الإشاعة التي تحتوى بالصولة الحاضرة وتملاً الآفاق بالشهرة المترددة . وقد أشاع الأوربيون في عصر ثقافتهم وساطانهم أن أسلافهم اليونان سبقوا الأمم إلى العلم والحكمة ، واختلط على الأوربيين كما اختلط على غيرهم قدم التوراة بالنسبة إلى الإنجيل والقرآن وقدم الإسرائيليين بالنسبة إلى المسيحيين والمسلمين ، فتوهبوا أن العبرانيين سبقوا العرب إلى الدين والثقافة الدينية ،

وكتابهم نفسه صريح في حداثة إسرائيل وحداثة إبراهيم من قبله
بالنسبة إلى أبناء البلاد العربية .

وليس أعجب من الجهل بالحقيقة التي تظهر هذا الظهور .
ليس أعجب من هذا الجهل إلا أن تكون الأوهام المشاعة
بهذه القوة عند أقوى الأمم وعند أشهرها بالعلم والثقافة .
فلو لم يكن في الصفحات التالية إلا أنها تكشف هذه الإعجوبة
في ناحية من نواحيها لكان ذلك حسبها من سبب يوجب علينا
كتابة هذه الرسالة . فهي تفصيل لما في هذه الأسطر القليلة من
إجمال ، وأيسر تفصيل كاف في مجال كهذا المجال .



من لهم العرب

وصيد العرب في ديارهم قبل أن يعرفوا باسم العرب بين جيرانهم ، وكانت لهم لغة عربية يتكلمونها وتمضى على سنة التطور عصراً بعد عصر ، إلى أن تبلغ الطور الذي عرفناه منذ أيام الدعوة الإسلامية .

وهذه هي القاعدة العامة في تسوية الأمم وفي تطور اللغات ، فليس العرب بدعاً فيها بين أمم المشرق والمغرب .
فألهند — مثلاً — كانت عامرة بسكانها قبل أن يسمى نهرها بنهر « الهندوس » وقبل أن يطلق اسم هذا النهر على شبه الجزيرة كلها .

والحبيشة كانت عامرة بقبائلها المتعددة قبل أن يسميها العرب بهذا الاسم ويقصدون به بلاد الأحباش أى السكان المختلطين ، وقبل أن يسميها اليونان باسم « أثيوبية » أى بلاد الوجوه المحترقة وقبل أن يسميها العبرانيون باسم بلاد الكوشيين لأنهم ينسبون أهلها إلى كوش بن حام بن نوح .

وكانت بلاد السكندناف معمورة قبل أن يسميها أهل الجنوب
بلاد « النورديك » أى الشماليين .

وكانت انجلترا معمورة بطائفة من السكان بعد طائفة ، يوم
أطلق عليها اسم انجلاند أو انجلترا ، أو أرض الأناجلة angles
الذين قدموا إليها فى القرن الخامس بعد الميلاد ، ومن ملوكها
من كان يحلوه أن يسميها بلاد الملائكة Angellykes لأن البابا
غريغورى اختاره لها بدلا من اسم بلاد الأناجلة الذى يشبهه
فى نطقه Engelscé ... فراح بعضهم يرسم صورة « ملائكية »
على عملتها الذهبية ، والتبس الأمر على أتباعهم فأوشك أن
يخط عليهم الحقيقة . لولا قرب العهد باسم الأناجلة واسم
موطنهم المعروف .

* * *

وكل هذه الأمم كانت لهم لغات يتكلمونها قبل ألفى سنة
ولا يتكلمها اليوم أبناؤهم على النحو الذى كان يفهمه آباؤهم ،
ولا يشذ عن ذلك أمة من الأمم ولا لغة من اللغات .

* * *

وقد مضى على العرب أكثر من ألفى سنة وهم معروفون
بهذا الاسم الذى يطلقونه على أنفسهم ويطلقه عليهم غيرهم ،

ولا يزال أصل التسمية وتاريخ إطلاقها غير معروفين على التحقيق إلى اليوم .

هل أطلق عليهم اسم العرب لأنهم كانوا يسكنون موقع الغرب من أمة أخرى يحمل فيها حرف العين محل حرف الغين كما يحدث في بعض اللهجات ؟

هل أطلق عليهم هذا الاسم من العرابة بمعنى الجفاف أو الصحراء في لغة بعض الساميين بشمال الجزيرة ؟
هل أطلق عليهم نسبة إلى عرب بن قحطان أو نسبة إلى «عربة» من أرض تهامة كما يقول ياقوت ؟

إن مؤرخي العرب يختلفون في ذلك كما يختلف فيه غيرهم . ويقول ياقوت في معجم البلدان بعد أن أشار إلى ذلك : « إن كل من سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلها فهم العرب ، سموا عربا باسم بلدهم العربات . وقال أبو تراب إسحاق بن الفرج : عربية باحة العرب ، وباحة العرب دار أبي الفصاحة إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام ... أما النبطي فكل من لم يكن راعيا أو جنديا عند العرب من ساكني الأرضين فهو نبطي ... »
وكما قيل إن العرب سموا بهذا الاسم لأنهم نزّلوا إلى الغرب من منازل غيرهم ، يقال إنهم سموا شرقيين Saracena عند قوم

من أوربة ، وأن الاسم في أصله كان يطلق على قبيلة عربية تسكن إلى الشرق من جبل السراة . ولعلهم سموهم « سراتيين » نسبة إلى الجبل نفسه وتحرف الاسم بلغات الأوربيين إلى سراسين . تذكر هذه الخلافات لنقول إن وجود العرب في ديارهم سابق لها متقدم عليها ، وإن الثقافة العربية ينبغي أن تنسب إلى أمتها قبل أن تسمى بهذا الاسم أو بذاك من الأسماء المختلف عليها . فلا اختلاف على نسبة الثقافة إلى الأمة كائنا ما كان الاسم الذي عرفت به عند جيرانها وعند سائر الأمم التي تتحدث عنها . ويختار لها اسمها على حسب مصادره ومناسباته في عرفها .

* * *

ولا خلاف في علاقة العرب الأقدمين بالجزيرة العربية ، ولا في قدم العمران بهذه الجزيرة .

ولا خلاف كذلك في قدم اللسان العربي فيها ولا في أنه أقدم لسان تكلم به سكانها الأقدمون ولم يعرف لهم لسان قبله مخالف له في أصوله وخصائصه التي تميز بها بين اللغات العالمية .

أكان المتكلمون بهذا اللسان قبل ثلاثين قرنا مقيمين بالجزيرة العربية أم كانوا مقيمين في موطن آخر ثم هاجروا إليها ؟

هنا تختلف الأقوال بين مواطن ثلاث ، هي الحبشة وبادية الشام وأعلى العراق .

لكن الحبشة ليست مصدر الحاميين والساميين في جهة واحدة . فالساميون أخرى أن يكونوا وافدين إليها على قلة محدودة ، وليس من الموافق للأوضاع التاريخية ولا للألوف من الهجرة هناك أو في جهات أخرى أن يكون الساميون المنتقلون من الحبشة أكثر من عشرات أمثالهم في موطنهم الأصلي بالبلاد الحبشية . ولم يحدث في عصور التاريخ المعروف أن كان المهاجرون من الحبشة إلى جنوب الجزيرة يزيدون عددا على الذين يهاجرون من جنوب الجزيرة إليها .

كذلك لم يحدث في حدود التاريخ المعروف أن ترحل الجماعات الكثيرة من بلاد الهلال الخصيب أو من أعلى العراق إلى الصحراء العربية . فليس هذا مما حدث في الواقع ولا مما يوافق المعهود في بواعث الهجرة وحركاتها المألوفة .

فمن المألوف أن يحدث الجفاف والجذب في البلاد الصحراوية فيرحل عنها أهلها ، ومن التاريخ الواقع أن هذا قد حدث فعلا غير مرة في هجرة القبائل من جنوب الجزيرة وأواسطها إلى بلاد الأنهار أو بلاد الخصب الدائم والمرعى الوفور ، ولكنه

لم يؤلف ولم يحدث قط أن ينعكس الأمر فترحل القبائل أفواجا
أفواجا من أرض الماء والمرعى إلى أرض تتخللها الصحارى
الواسعة ، ويطرأ عليها الجفاف والجذب في عهود متلاحقة ،
تكاد أن تنتظم في مواعيدها وأدوارها .

فن الثابت أن جنوب الجزيرة كان مأهولا قبل ثلاثة آلاف
سنة ، وكانت له عمارته ومبانيه التي لا تنشأ في قرون قليلة ، فهل كان
وفود هؤلاء إلى الجنوب بعد سكان آخرين سبقوهم ثم انقرضوا
أو انهزموا وخلفهم الوافدون على بلادهم ؟ فن هم أولئك السكان
الأولون ؟ وما لغتهم ؟ وما الداعى إلى اقراض وجودهم ؟
ومن أين جاءهم الوافدون اللاحقون وتغلبوا عليهم بالقوة
التي تهزمهم ؟ وما هى لغتهم وعلاقتها بالعربية ؟
كل ما يمكن أن يقال عن ذلك إنه تخمين لا دليل عليه
ولا موجب له ولا موافقة بينه وبين تجارب الواقع في أماكن
الهجرة المطروقة من قديم الزمن داخل الجزيرة العربية أو
من حولها .

ولا صعوبة في تصور الهجرة من الجنوب إلى الشمال على حسب
التجارب الواقعة ، فلا نضطرنا وقائع التاريخ إلى السؤال عن
أبناء البلاد الأصلاء في العراق أو بادية الشام أين ذهبوا ومن

هم في أصولهم وما هي لغاتهم وأبائهم ، فإن التاريخ يدلنا عليهم وعلى بقاياهم ، وآثارهم حيث أقاموا قرية من مواطنهم سواء كانوا من السومريين أو من الآريين أو من الطورانيين على التخوم الفارسية أو تخوم الصين ، بعضهم لبث في الأرض ، وبعضهم جلا عنها إلى ما وراء حدودها ، وكلهم ترك من مخلقاته ما يتركه المغلوب المقيم أو المغلوب الذي زال عن البلاد .

* * *

فالثقافة العربية إذن هي ثقافة الأمة التي نشأت تتكلم اللغة العربية وعاشت تتكلمها كما كانت على الألسنة في كل دور من أدوارها على سنة التطور في جميع اللغات .

وقد كان أشهر اللغات السامية وأشيعها في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ثلاثا بين جنوب الجزيرة وشرقها إلى الشمال وغربها إلى الشمال ، وهي : اليمنية والآرامية والكنعانية ، مما يدل على أنها نبتت في الجزيرة من الجنوب إلى مواطن الهجرة التي درجت عليها القبائل منذ فجر التاريخ ، في طريق بحر العرب شرقا إلى وادي النهرين ، أو طريق البحر الأحمر غربا إلى فلسطين .

ثم شاعت الآرامية وغلبت على سائر هذه اللهجات وتفرعت

منها النبطية التي اتفقت الروايات على أنها أم لهجات الحجاز .
ولم تكن الآرامية بعد شيوعها غريبة عن المتكلمين بالكنعانية
أو الحميرية وعن الكتّابين بالحروف النبطية أو حروف المسند .
فكان المقيمون والراحلون بين هذه الأرجاء يتخاطبون بها كما
يتخاطب أبناء الأقاليم في القطر الواحد ، أو كما يتخاطب أبناء
وادي النيل اليوم من الإسكندرية إلى الخرطوم ، مع اختلاف
اللهجات والألفاظ في بعض المفردات .

ونحن نعلم أن مؤرخي العرب كانوا ينسبون شعوب العرب
البائدة جميعاً إلى « إرم » ويسمونهم بالآرمان كما جاء في تاريخ
سني الملوك لحمة الأصفهاني . ويجوز أن يكون الآراميون من
سلالة هؤلاء الأرمان هاجروا إلى وادي النهرين في تاريخ مجهول ،
ولكن تاريخهم المعلوم يرجع إلى عهد دولتهم التي حكمت بابل ،
وقام منها بالامر حمورابي صاحب التشريع المشهور (سنة
٢٤٦٠ ق م) حيث سادت اللغة الآرامية وادي النهرين وبادية
الشام وأرض كنعان وبلاد الأنباط ، وظهرت لهجتها العامة
— كلاماً وكتابة — في كل قطر من هذه الأقطار .

يقول صاحب كتاب « الأبجدية : مفتاح تاريخ الإنسان »
« الآرامية فرع كبير يرجع إلى الهجرة السامية الثالثة ذكرت

في مصادر التوراة وفي الكتابة المسمارية . ويطلق اسم آرام
الذي ورد في التوراة على سلالة عنصرية كما يطلق على الأقليم
الذي تسكنه تلك السلالة ، وجاء في أسماء الأمم بسفر التكوين
أن آرام جد الآراميين وقيل عنه إنه ابن سام ، وجاء في موضوع
آخر إنه حفيد ناحور أخى إبراهيم ، ويقال عن يعقوب إنه
آرامى تائه ، وعن أمه وزوجاته إنهن آراميات. وباستثناء لفظة
غامضة في الحفائر الأكادية في النصف الثاني من الألف الثالثة
قبل الميلاد ، تعتبر رسائل تل العمارنة المسمارية في القرنين الخامس
عشر والرابع عشر قبل الميلاد أقدم إشارة إليهم باسم اخلام
Akhلامي أو Akhlamn أى الأحلاف الذين يظن أنهم هم
أحلاف آرام المذكورين في وثائق القرن الثاني عشر قبل الميلاد.
وهم يسمون في المصادر الآشورية (أروميو) أو (آراميو)
وجمعهم آرامى .

إلى أن يقول :د إن موطن الآراميين الأول غير معروف .
وهم يوصفون في ألواح تل العمارنة التى تقدم ذكرها بأنهم أفواج
مترحلة مغيرة ، ويرجح أنهم قدموا من جهة الشرق الشمالى لبلاد
العرب إلى بادية الشام من طريق ، وقدموا من الطريق الآخر
إلى العراق . وعند نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد انتهى

سلطان الحيثيين والمتننين Mitanni على تلك الأرض . وظهرت الإمارات الآرامية الصغيرة في الشمال الشرق والشمال الغربي من وادي النهرين ، ثم طرأت على توزيع السكان في سورية الشمالية بعد استقرار الموجة الآرامية بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد طوارئ واسعة النطاق واعتصمت قبائل الآراميين فرصة هذه الطوارئ فأقامت بقوة السلاح ووفرة العدد سلسلة من الممالك الصغيرة في أخصب المواقع من شمال العراق وجنوبه إلى شرق البادية السورية ، وأمكن بفضل تدجين الجمل العربي حوالي نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، تيسير طرق القوافل تيسيراً كبيراً . فأقيمت في جوانب البلاد مراكز للتجارة الغنية ، أشهرها تدمر أو بلد النخيل .

وبعد الإشارة إلى أدوار الضعف التي انتابت الآراميين بعد ذلك قال :

« إن فقدان الحرية السياسية لم يكن معناه نهاية التاريخ الآرامي ، بل كان هذا الضعف الذي أصاب الحكومة فاتحة التفوق في الثقافة الآرامية ومسائل الاقتصاد الذي عم آسيا الغربية . . . فاصطبغت سورية كلها وجانب كبير من وادي النهرين بالصيغة الآرامية ، وأصبحت اللغة الآرامية هي اللغة الدولية في ذلك العهد ،

وأصبحت على عهد الدولة الأخمينية الفارسية إحدى اللغات الرسمية في الإمبراطورية ، ولساناً عاماً يتكلم به التجار من مصر إلى آسيا الصغرى إلى الهند . وبلغ من قوة اللغة الحيوية أنها شاعت في الاستعمال بعد ألف سنة من ذهاب الدولة الآرامية ، وعاشت اللهجات التي تفرعت عليها قروناً أخرى في بعض القرى النائية (١) .

وتمام هذا الكلام عن غلبة الآرامية أنها كانت تتازع العبرية بين اليهود وهي لغتهم الدينية . ومن ذلك ما جاء في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر التكوين : أنهم أخذوا حجارة وعملوا رجمة ودعاها لابان (يجر شهدوتا) . . وأما يعقوب فدعاها جلعيد ، وقال لابان : هذه الرجمة شاهدة بيني وبينك اليوم .

ومعنى «يجر شهدوتا» بالآرامية حجر الشهود ، وهي قرية من لفظها ومعناها باللغة العربية الحديثة ، أو هي اللغة العربية كما كانت تنطق في ذلك الدور من أطوارها .

ثم غلبت الآرامية على العبرية في المعابد والكتب الدينية ، فترجمت إليها كتب التوراة والتلمود ، وكتبت بها بعض الأسفار

(1) The Alphabet. A Key to the History of Mankind. by David Diringer.

أصلاً من عهد عزرا ودنيال . فلما كان عصر الميلاد كانت الآرامية
هى اللغة التى يتكلمها السيد المسيح ويجرى بها الخطاب بينه وبين
تلاميذه وبينه وبين المستمعين إليه فى عظاته ووصاياه .
جاء فى الإصحاح الخامس من إنجيل مرقس حكاية عن السيد
المسيح : « وأمسك يد الصبية وقال لها : طليثا قوى ، وتفسيره ...
لك أقول قوى » .

وجاء فى الإصحاح الرابع عشر : « وقال يسوع : يا أبا
— الأب — كل شئ مستطاع لك » .

وجاء فى الإصحاح الخامس عشر منه : « وفى الساعة التاسعة
صرخ يسوع بصوت عظيم : الوى . الوى . لما سبقتنى ، وتفسيره :
إلهى . إلهى . لم تركبتى ؟ ... ومعنى سبقتنى هنا : جاوزتني وتخلّيت
عني ، كما يمكن أن تعنى اليوم بالعربية التى تتكلمها .

وعلى ذلك يصح أن نقول : لأن الآرامية هى عربية تلك الأيام
فى موطنها ، وأنها قريبة جداً من اللغة العربية الفصحى بعد
تطورها نحو ثلاثة آلاف سنة لا يستغرب أن يحدث فيها مثل هذا
الاختلاف فى نطق الألفاظ وتركيب بعض العبارات .

قال صاحب كتاب الكنز فى قواعد اللغة العبرية وهو يتكلم
عن الآرامية ويسمىها البابلية : « ثم انظر فيما يكون من التشابه

الظاهر بين العربية والبابلية ولا سيما في الإعراب وحركاته، كالتنوين مثلاً.. فهو في البابلية ميم وفي العربية نون ، وهذان الحرفان من أحرف الإبدال ، ونحن نعرف أن من العرب من يميز إبدال أحدهما بالآخر ، ومنها علامة الجمع : فهي في البابلية الواو والنون ، كما أنها في العربية الواو والنون أيضاً ، وفي السريانية الياء والنون ، وفي العبرية الياء والميم ، ومنها أن جميع الأفعال في البابلية أقرب إلى صيغها في العربية . فصيغ الأفعال التي وجدوها في هذه اللغة تبلغ اثنتي عشرة صيغة ، وأكثر هذه الصيغ مشهور معروف في العربية والعبرية والسريانية^(١) ، ...

* * *

وجملة القول أن الثقافة الآرامية عربية في لغتها ونشأتها ونسبتها إلى عنصرها ، ولا يمكن أن تعرف لها نسبة إلى أمة غير الأمة العربية في عهودها الأولى . فكل ما استفاده العالم من جانبها فهو من فضل هذه الأمة على الثقافة العالمية .

(١) كتاب السكندر مؤلفه الدكتور محمد بدر .

أسماء أخرى

بعض تحقيق المقصود باسم العرب في الزمن القديم نستطرد إلى تحقيق أسماء الأمم والبلاد التي

عاصرت العرب في تلك الحقبة كما عرفها اليونان وانتقلت منهم إلى الأوروبيين والشرقيين بعد شيوع الثقافة اليونانية . فإن تحقيق هذه الأسماء لازم لمعرفة المدى الذي انتهت إليه علاقات اليونان بتلك الأمم ، وتحقيق ما استفادوه منها أو استفادتهم منهم على اختلاف الروايات والدعاوى في الأزمنة المتأخرة .

فاليونان يتوسعون كثيراً في تسمية البلاد والأمم وإطلاق الاسم على موضعه وعلى المواضع التي تجاوره في بعض الأحوال . وقد يتفق لهم عكس ذلك في تخصيص جزء من الأرض بالاسم الذي يعمها ويشملها مع غيرها ، لرابطة المشابهة والجوار .

ومن ذلك أنهم أطلقوا اسم سورية على الإقليم المشهور بين شواطئ البحر الأبيض الشرقية وبلاد الروم وتخوم العراق ، ثم توسعوا بها حتى شملت « آشورية » وأصبح اسم السريان عندهم

علماء على الآراميين في الرقعة الواسعة التي يسكنونها من وادي
النهرين إلى سيناء وأطراف الحجاز .

وهم يطلقون اسم فينيقية على شاطئ فلسطين إلى الشمال
والجنوب من مدينة صور التي اشتهر أبنائها الملاحون عندهم باسم
الفينيقيين ، ولكن فينيقية كما يدل عليها اسمها كانت اسماً لبلاد
النخل في الإقليم كله ، من كلة فينقس عندهم بمعنى النخلة *φονίξ*
وتقابلها عند الرومان كلمة *Palmyra* التي أطلقت على مدينة « تمر »
أو « تدمر » في شرق البقاع . . . و « تمر » هي الكلمة السامية
التي تقابل كلمة *Palm* بمعنى النخلة في بعض اللغات الأوربية
إلى اليوم . . . ولا يخفى أن أرجح الأقوال عن أصل الفينيقيين
الأقدمين أنهم نشأوا عند الخليج العربي في بلاد النخيل وتحولوا
منه إلى فلسطين يوم كانت وطناً مشهوراً بكثرة ما فيها من النخيل .
واسم مدينتهم « قرطاجة » التي بنوها بعد ارتحالهم من فلسطين
إلى شاطئ البحر الأبيض الجنوبي قريب جداً — في أصله —
من الكلمة الآرامية « قارة حدائة » أي القرية الحديثة ، وتحريفها
إلى قرطاشة وقرطاجة على ألسنة الرومان قريب جداً بعد إسقاط
الحاء التي لا ينطق بها الغربيون .

واليونان وضعوا اسم « أثيوبية » — ومعناه الوجوه

المختقرة — وأرادوا به البلاد التي عرفها العرب قديماً وحديثاً باسم الحبشة ، ثم شملوا بها اليمن وسموها بأثيوبيّة الآسيوية ، وأوشكوا بعد ذلك أن يعمموا اسم الأثيوبيين على الأفريقيين السود جميعاً ، وهم الكوشيون في عرف اليهود والناقلين عنهم من شراح الكتب الدينية .

ومصر القديمة سماها اليونان باسم مدينة كبتوس ، فقط ، ثم أطلقوا اسم « جبتوس » على القطر كله ، وهو الاسم المشهور الآن في اللغات الأوربية .

والهند سميت كلها باسم نهرها المعروف في الغرب الشمال منها ، وما زالت حتى أصبح يقال عن « الأندوس » ، إنه نهر في الهند ، وهي منسوبة إليه .

وعلى هذا يحدث أحياناً أن يتكلم اليونان عن أثوبي وهو يمني ، أو عن فينيقي وهو سوري ، وعن آشورية assyria وهم يقصدون سورية Syria وعن هؤلاء جميعاً وهم يقصدون المتكلمين بالآرامية التي كانت أوسع اللغات انتشاراً بين جميع هذه البلاد .

الكتابة المربية

ثبت من الآثار المحفوظة أن المصريين الأقدمين تطوروا بالكتابة من رسم الصور إلى رسم المقاطع إلى رسم الحروف التي تسمى اليوم بالحروف الأبجدية ، وتسمى عند الأوربيين عامة بحروف « الألف باء تاء » ، alphabet نقلا عن العريية .

وقد تبينت رسوم بعض الحروف المصرية القديمة من ألواح سيناء ، وهي حلقة الاتصال بين الحروف الأولى وبين الحروف على أشكالها المتقاربة التي تطورت بعد ذلك في مختلف اللغات .

إلا أن الحروف المصرية القديمة كانت مقصورة على الكتابة الدينية وكتابة الدواوين وما شابهها من المراجع الرسمية ، وإنما انتشرت في المعاملات العامة بعد أن نقلت من سيناء إلى البلاد الواقعة على طرق التجارة الشرقية ، بجميع مواصلاتها براً وبحراً من الهند إلى شواطئ البحر الأبيض و حدود البلاد المصرية .

وقد كانت مراكز التجارة الكبرى على هذه الطريق في بلاد العرب ، من خليج العرب إلى عدن إلى خليج العقبة ، إلى مدن فلسطين ومدن الحدود الشرقية في مصر القديمة .

ولم يكن من المصادفة المجهولة أن تظهر في لغة العرب خطوط الحرف المسبارى وخطوط الحرف المسند وخطوط الحرف النبطى بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين .

فإن التجارة التى تحتاج إلى المعاملة الكتابية تجرى على خط المواصلات من خليج العرب إلى عدن إلى العقبة إلى ما جاورها من بلاد الأنباط والكنعانيين ، وهذه هى على التوالى مواطن الخط المسبارى والخط المسند والخط النبطى وما تفرع عليه .

وتجرى المواصلات على غير هذا الخط من طريق البادية بين وادى النهرين وشواطئ البحر الأبيض ، فليس من المصادفة المجهولة أيضاً أن توجد على طريق هذه المواصلات بقايا الكتابة الصفوية والكتابة اللحيائية والثودية فى حوران وتدمر والحجر من ديار ثمود . فى هذا الطريق يتقابل أصحاب القوافل من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، كما يتقابلون بين الحجاز والشام وبين الشام والحجاز .

والغالب على التجارة العربية أنها تسلك طريق البر على ظهور

الجمال ، ولكنها لم تكن معزولة عن البحر كما يتوهم الكثيرون
لاعتقادهم أن أصحاب سفينة الصحراء لا يعرفون سفينة غير الجمال ،
ولا يركبون مطية البحر أو يحسنون قيادتها كما يحسنون قيادة
المطايا على الرمال . فإن العرب ركبوا البحر قديماً في المحيط الهندي
وسبقوا الملاحين إلى شواطئ أفريقيا الشرقية في الجنوب ،
ووجدت في بلادهم صناعة بناء السفن عند العقبة وعمان ، ولم يكن
سليمان الحكيم — بطبيعة الحال — أول من بنى سفناً بجوار
العقبة ، ولكنه وجد هذه الصناعة وعمل سفنه فيها كما جاء في سفر
الملوك الأول . وعمل الملك سليمان سفناً في عصيون جابر التي
بجانب أيله على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم .

وسميت هذه الجهة قبل الإسلام بفرج الهند كما قال الطبري ،
لأنها كانت ولاشك تتلقى التجارة من طريق البحر والبر . ولا تزال
على اتصال بالملاحة البحرية مع اتصالها بالقوافل على ظهور الجمال .
ويقول المسعودي إن الملاحين العرب كانوا يديرون قيادة
السفن ويدونون تجاربهم في الكتب المتوارثة عن آباؤهم من زمن
قديم ، وكان في بحر الهند كما قال : « مشايخ ولدوا ونشأوا من
ربابين وأشائمة ووكلاء وتجار ، ورأيت معهم دفاتر في ذلك
يتدارسونها ويعولون عليها . »

ومثل هذه الصناعة لا تنشأ في سنوات ولا في أجيال قليلة .
فلا بد لها من أجيال بعد أجيال طوال .

على أن الأمر المهم في هذا التاريخ أن المواصلات كانت قائمة
دائمة على هذه الطرق القديمة من أوائل عصورها ، وليس بالمعقول
أن يكون الأمر غير ذلك بحكم الموقع وحكم العلاقة بين المشرق
والمغرب . فإذا استخدم الناس الكتابة في معاملاتهم التجارية
فليس في العالم المعمور يومئذ موقع أولى باستخدامها من البلاد
العربية ، وليس من المصادفة كما تقدم أن تكون الخطوط
المسارية وخطوط المسند وخطوط الحروف النبطية أول ما تطور
من حروف الأبجدية بعد مرحلتها التي بلغت في ألواح سيناء .

ومن الواضح أن صناعة السفن لم تكن عامة في بلاد العرب
وما جاورها عموم الملاحة على شواطئها في البحرين : الأبيض
والأحمر . وإنما توجد صناعة السفن حيث تيسر وسائلها من
الأخشاب والمعادن ومواد اللحام والطلاء ، وحيث تيسر إلى
جوارها مراسي السفن للبناء والإصلاح والمأوى ، ولهذا كانت
شواطئ البحر الأبيض الشرقية أعمر الشواطئ بمراكز هذه
الصناعة ومراكز الملاحة معها . لأنها نهاية الطرق البرية من قبل
آسيا ، وبداية الطرق البحرية إلى القارتين الأوروبية والأفريقية ،

ولى جوارها غابات الشجر الذى يصلح لبناء السفن وموارد
المواد المنوعة التى تدخل فى صناعتها . فكانت شواطئ فلسطين
ولبنان أعمر الشواطئ الشرقية بأسباب الملاحة والملاحين
ومراكز التجارة التى تصدر من البلاد أو ترد إليها من خارجها ،
وكانت هذه الشواطئ هى التى اشتهرت عند اليونان باسم « فينيقية »
ونسبوا إليها كل ما استوردوه من بلاد العرب على طريقها ،
وتواتر عندهم أنها البلاد التى تلقوا منها الحروف وعلم الكتابة
كما سيأتى فى الفصول التالية .



الأبجدية اليونانية

نظم اليونان الكتابة وأخذوا رسم الحروف من «قدموس» الفينيقي كما قالوا في تواريخهم ورووا قبل ذلك في أساطيرهم المتواترة ، مما يدل على قدم العهد باعتمادهم في ثقافتهم على المصادر الفينيقية .

وأيا كان قول المؤرخين والرواة فهذه المسألة — مسألة الأبجدية — من المسائل التي لا حاجة بها إلى التاريخ والرواية . لأن أسماء الحروف وأشكالها ومعانيها شاهدة باتتقالها من المصادر العربية ، سواء كانت فينيقية أو آرامية أو يمنية من الجنوب . فالأبجدية تسمى عند اليونان بالاد ألفايتا ، وتبدأ بالالف والباء والتاء ، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب .

وليس لأسماء الحروف معان مفهومة في اللغة اليونانية ، ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى في لغتنا العربية العصرية ، فضلا عن اللهجات العربية الغابرة .

وأقرب هذه الحروف إلى المعاني العربية الشائعة في أيامنا
حرف الباء من بيت ، وحرف الجيم من جمل ، وحرف العين من
عين ، وحرف الفاء من قم ، وحرف الكاف من كف ، وحرف
الميم من ماء ، وحرف الياء من يد .

وأشكالها المرسومة قريية من أسمائها الأولى كما يرى في شكل
البيت وشكل رقبة الجمل وشكل العين وشكل الفم ، وغيرها من
الأشكال .

ولإذا رجعنا إلى نطق أسماء الحروف كما شاعت أول استعمالها
في البلاد العربية تبينت العلاقة بين أشكالها ومعانيها جميعا بغير
استثناء حرف واحد من الحروف ، فكلها أوائل كلمات مفهومة
من بقايا الكتابة التصويرية التي ترسم الشكل كله وتأخذ من
الكلمة حرفها الأول عند الكتابة بالحروف .

وليس من اللازم أن تكون الحروف كلها قد شاعت وعمت
على صورة واحدة في وقت واحد ، إذ من المحقق أن حروف
العلة تأخرت زمنا طويلا بعد الحروف الساكنة كما نرى من
كتابه المبتدئين إلى اليوم . فإن الطفل الناشئ الذي يتعلم الهجاء
لا يكتب حروف المد إذا سمع الكلمة عن يملها عليه .

كذلك يثبت من تاريخ الكتابة أن الحروف المتشابهة نشأت

على التدرج ، لتمييز الأصوات المتشابهة أو التي يسهل الإبدال بينها ، كالتاء والثاء ، والحاء والحاء ، والذال والذال ، والعين والغين ، وغيرها من التشابهات في نطقها ورسمها ، فإنها تتبدل في لفظها اليوم كما كانت تتبدل منذ مئات السنين ، ويتبين من تاريخ التدرج في الكتابة أن الحروف المتشابهة وضعت حيناً بعد حين للتمييز بينها بعد التباس النطق بها ووضوح الحاجة إلى تمييزها ببعض العلامات ، كعلامات النقط والتذييل .

ولهذا يرجح المؤرخون أن اليونان نقلوا حروفهم من البلاد العربية جميعاً ولم يقتبسوها كلها دفعة واحدة من الفينيقيين . ويرى من كتاب خيرشوف Kirchoff عن الأبجدية اليونانية أن حروف الجيم واللام والسين Ϯ. ϡ. ϣ أقرب إلى حروف المسند أى الحروف اليمنية في الجنوب ، منها إلى الحروف الفينيقية أو حروف النبط في الشمال .

وقد يعزى الاقتباس إلى رواد الرحلات من اليونان في بلاد العربية السعيدة ، أو بلاد اليمن كما عرفوها . ومن الباحثين من يرجعها إلى عهد سابق العهد الرحلات اليونانية بزمان طويل . ويخطر لهُؤلاء الباحثين أنها أثر من آثار حضارة عربية موهلة في القدم وصلت إلى بلاد اليونان ، كما وصلت الحضارة العربية

إلى الأندلس في الأزمنة الحديثة بعد الميلاد .
يقول مرجليوت في الصفحة الحادية عشرة من كتابه عن
الصلات بين العرب وبني اسرائيل :

« يرد على الخاطر سؤال عن أسماء المواقع التي تظهر على
خريطة اليونان القديمة كعسكرا : أى المعسكر ، وفندس : أى
الجبيل من الفند وهو الجبيل العظيم باللغة العربية ، ولاريسا :
أى العريش أو الخيمة ، إلى أمثال هذه الأسماء التي تشبه
أسماء المواقع في الأندلس بعد الفتح الإسلامى ، فيبادر
إلينا السؤال : ألا تشير هذه الأسماء إلى حضارة عربية عريقة
وصلت إلى اليونان ومعها حروف الأبجدية قبل أن يصل إليها
الفينيقيون بحروف تخالفها (١) » .

وليس هذا الاحتمال بعيد ، لأن آثار الكتابة العربية
شوهدت في جزر الأرخبيل بحروف عربية على غير رسم
الحروف الفينيقية ، ولأن تاريخ الاحتلال الفينيقى لبلاد اليونان
على قدمه ، يدل على سبق الهجرة إليها من البلاد الشرقية ، كما
يدل على تتابع الهجرة قبل ذلك من الناحية الآسيوية ، حيث
وصلت .

(1) Relations between Arabs and Israelites
by Margoloth

وكيفما اختلفت الأقوال عن مصادر النقل والاقباس فلا خلاف في أمرين : أحدهما أن الأبجدية اليونانية منقولة عن أبجدية سبقتها ، وأن هذه الأبجدية السابقة هي الأبجدية العربية التي تدل عليها ألفاظ حروفها وأشكالها ومعانيها .

وإذا كانت هذه الحقيقة غنية عن أقوال المؤرخين والرواة فلا بد معها من حقيقة أخرى مثلها في الثبوت والوضوح بغير حاجة إلى أسناد من التاريخ أو الرواية .

تلك الحقيقة الأخرى هي انتقال لوازم الحضارة وصناعاتها الأولية على الأقل مع انتقال الكتابه وانتقال أساليب استخدامها في المعاملات ، فإن الأمة المتعلبة لا تأخذ الكتابه من معلمها وتترك ما عندهم من صناعة السفن والملاحة ، ومن معارف الفلك والجغرافية التي يعتمدون عليها في السياحة ، ولا مناص لها من الشعور بالحاجة إلى أدوات الحضارة التي يجلبها إليهم أصحاب السفن التي تدل بيناتها وبما تحمله من بضائعها على التقدم في العلم ومرافق العيش ومطالب الحياة .

فلو لم يذكر التاريخ شيئاً عما استفاده اليونان من صناعات البلاد العربية ومعالم حضارتها لكانت هذه الفوائد من حقائق البدهة التي تستغنى عن التاريخ ، ولكن التواريخ اليونانية ، بل

الأساطير الشعبية ، تسجل هذه الحقيقة وتذكرها كما تذكر
الحقائق المسئلة التي لا داعية لتوحيها ولا للبالغلة فيها ، ولعلمهم
كانوا يذكرونها بشيء من الفخر لأنهم تعلوا حيث وجدوا العلم
الضروري ولم يهملوه :



ومن العرب الأفراسين تعاليم اليونان صناعات الحضارة

هيرودوت في الكتاب الخامس من تاريخه :

« والآن نذكر أن الفينيقيين الذين جاءوا

يقول

مع قدموس وإليهم ينسب الجفيريون ، قد أدخلوا معهم إلى اليونان بعد قدومهم إلى بلادهم صناعات كثيرة متنوعة ، منها : صناعة الكتابة التي كانوا يجهلونها على ما أحسب ، قبل ذلك . ففقلوا حروفهم — أولاً — على مثال الحروف الفينيقية بغير تصرف . ثم تغيرت مع الزمن لهجاتهم فتغيرت معها رسوم حروفهم ، وقد كان الآيونيون أكثر الأغريق الذين كانوا يومئذ يقيمون في تلك البلاد حيث نزل الفينيقيون ، فاقترضوا الحروف الفينيقية مع تعديل قليل في رسم بعضها . وما زالوا بعد حين يسمونها بالفينيقية إنصافاً لمن نقلوها إليهم ، وقد كان الآيونيون يسمون الورق بالقديد لأنهم كانوا يكتبون على الجلود عند ندرة صحائف الكتابة . وما برح البرابرة يكتبون عليها إلى هذه الأيام . وقد رأيت بنفسى كتابة بالحروف

القدموسية محفورة على بعض القوائم المثثة في معبد (أبولون
أسمنياس) بثنية البوطية ، رسومها تحكى الرسوم الآيونية ،
وعلى إحداها هذه العبارة :

« أقامنى أمفثريون من عهد مقدم التلبوية » ... فهى قرية
من عهد لا يوس بن لابداكوس بن بوليدورس بن قدموس ...
وعلى قائمة أخرى نقشت هذه العبارة من شعر العروض
السداسى : وهبنى سكاوس الملاك للشمس الساطعة بعد فوزه :
هبة جميلة معجبة ... ولعله سكاوس بن هيبوكون ! فإن كان هو
الذى وهب القائمة ولم يكن أحد آخر يسمى بمثل اسمه فتاريخ
الهبة يرجع إلى عهد أوديب بن لا يوس ...

« ورأيت على القائمة الثالثة كتابة نظمت من العروض
السداسى يقول كاتبها : إن الملك لاودامس وهبها للشمس النافذة
عند جلوسه على عرشه هبة جميلة معجبة ...

« وفى عهد لاودامس هذا — ابن أتوكليس — أخرج
القدموسيون من بلادهم ولاذوا ببلاد الأنشيليين — على الشاطئ
الغربى من البانيا الحديثة .. »

ونحن ندرك قول هيرودوت أن الآيونيين — أى اليونان —
نقلوا السكتابة بغير تصرف حين تعلم أنهم نقلوها بطريقتها ومادة
صحفها ، كما نقلوها برسوم حروفها وألفاظها . فقد ظلوا يكتبون

السطور من اليمين إلى الشمال كما نكتب العربية اليوم ، وبقيت هذه الطريقة متبعة عندهم في نقوش الآنية المزخرفة إلى ما بعد اقتباس الكتابة بعدة قرون ، ولم تظهر لهم نقوش من الشمال إلى اليمين قبل أيام بساتيك في القرن السابع قبل الميلاد .

ولاشك أن اليونان غيروا زمنا طويلا وهم يتلقون ثقافتهم وصناعاتهم من القدموسيين بأوطانهم المختلفة من آسيا الصغرى إلى حدود بلاد الألبان العصرية في الجنوب ، فلا بد أن يكون هذا الزمن موعلا في القدم عدة قرون كي تبرز أخباره التاريخية بروايات الأساطير المتداولة على ألسنة الجماهير ، فإن أساطيرهم تضيف إلى أخبار التاريخ التي تنسب إلى قدموس فضل تعليمهم الكتابة وبنائه لمدينة بوطية أنه كان من أصحاب المعجزات الذين تعينهم الآلهة ، وتملى عليهم مكائد الحرب والحديعة . ومنها أن قدموس قتل التنين الحارس لبعض الينابيع في بوطية ، وثر أسنانه على الأرض فنبئت منها شرذمة من المردة المسلحين أحاطوا به ليقتلوه ، فأوحى إليه الربة أثينا أن يلقي إليهم بجوهره كريمة بهرتهم فتركوه واقتتلوا عليها حتى أفنى بعضهم بعضا ولم يبق منهم غير خمسة لم يقدروا عليه لأنهم خرجوا من الممعة منهوكين مهزولين . ومن هنا يقال عن النصر التي تنال بالثمن المهرق والخسارة الفادحة ، أنها نصره قدموسية أو قديمة ، ويجرى هذا

في التعبيرات المجازية بين المحمدين من الأوربيين .
ويقول المعجم الأثرى أنهم كانوا يعبدون هرم رب الحكمة
والمعرفة عندهم باسم قدموس ، « وأنه كان يقال عنه : إنه مخترع
الزراعة والحداثة وصناعات الحضارة على التعميم ، وأن الشعراء
الأقدمين لم يكن لهم علم بمقدمه أكان من الشرق أم من مصر أم من
فينيقية . ولما قيل أخيراً إنه من فينيقية قرنوا اسمه باختراع
حروف الأبجدية التي يعرف الأغريق جيداً أنهم أخذوها
من الفينيقيين^(١) .

والثابت بعد هذا كله من الواقع — فضلاً عن أخبار
التاريخ — أن الحروف اليونانية القديمة كالخروف العربية ،
وأنهم كانوا يكتبونها من اليمين إلى الشمال كما نكتب العربية
اليوم ، وأنها بأشكالها وأسمائها ذات معنى في اللغات السامية ،
ولا معنى لها في لغة من اللغات الأوربية ، وأن اتقالتها كان
مقروناً بانتقال صناعات الكتابة وأدواتها وما يتصل بها من
الصناعات الأخرى ، وأن اليونان تعلموا الملاحة وفنونها من
سبوقهم : أي من أمم البحر الأبيض الشرقية ، وأن النقوش
وأسماء المواقع في البلاد اليونانية ترجع وصول العرب بحضارتهم

(١) صفحة ١٠٦ من معجم الآثار السلفية تأليف سيفرت

Dictionary of Classical Antiquities by Oskar Seyffert

إلى تلك البلاد في زمن قديم سابق على الأقل لشيوع أسماء
« لاريسا » : أى العريش و « عسكرا » : أى العسكر و قدس
Pindus أى الجبل العظيم .

على أن اقتباس اليونان من العرب يظهر لنا من تشابه
الكلمات فى اللغتين ولا سيما الألفاظ التى تدل على أصل متشعب
فى العربية ، أو تدل على نظام المعيشة الغالب على الأمة
وطول العهد به فى موطنه ومستقره .

فالبرج فى اليونانية برجوس πύργος ومادة الباء والراء
ومثيلتهما أصيلة فى الدلالة على الظهور والعلو : كبرز وبرض
وبرع وبرق . ومعنى البروج والتبرج والأبراج شائع
فى المادة العربية .

ولا شك فى سبق العرب إلى الفرس والسيف والقناة .

والفرس فى اليونانية πορσάδα والسيف ξίφος
والقناة أخذوها وأخذوا منها القانون بمعنى المقياس ،
ولا تخفى علاقة القناة والقصة بالمقاييس فى كل لغة . ومنها الرول
Rule بمعنى القاعدة ، والرول بمعنى المسطرة فى اللغة الانجليزية .
ومن الكلمات التى تليق بالمقاييس كلمة القسطاس δικάστης
وكلمة القالب καλὸς

ولا تخفى العلاقة بين كلمتى « قلم » و « قصة » وبين المصنر

العربي لكلمة كلوس Κόλλωμος وكلمة كسمبة Κόσμιμα اليونانيتين
 بمعنى قصبة ، وإن يكن تاريخ استعمالها غير معلوم .
 وتلحق بكلمات الكتابة الخارطة والخرطة ، والأولى
 عربية من خراطة السائل الذي يؤخذ من أصل ورق البردى ،
 ومن الخرط وهو قطع الجلد أو الصحف التي يكتب عليها ...
 وتسمى الخارطة والخرطة في اليونانية χάρτης ومنها الكرئيس
 أو القرطاس .

وتلحق بكلمات الملاحة كلمة سير وهي باليونانية (سيرا)
 σείρα وكلمة غراء وهي σύρος وهما أشبه بصناعة السفن
 وبالصناعة على الأجمال ، وليس أبعد من الفرض الذي
 يجعل هذه الكلمات منقولة عن اليونانية إلى العربية ، مع العلم
 بسبق العرب في الملاحة والكتابة وقياس ما ينقل في السفن
 ووزنه وتقديره .

ونظير ما تقدم في الدلالة على اقتباس اليونان دائما من
 العرب في أمثال هذه الألفاظ التي ترتبط بالمعاملات وشئون
 المعيشة — أنهم حولوا أسماء أيام الأسبوع إلى الترتيب العددي
 أسوة بأسمائها العربية ، وغيروا منها اسم السبت والأحد بعد
 ظهور المسيحية ، وهل كان اقتباسهم من المسيحية إلا اطرادا
 في هذه القاعدة وجريا على هذا القياس ؟ .

والفلسفة

ليست بالاستثناء من هذه القاعدة العامة في تاريخ
الثقافة الشرقية اليونانية ، خلافا لما يظنه القائلون بأن
فلسفة اليونان قد نشأت في منبتها نشأة منقطعة عن ثقافة العالم
في جملتها .

إن طاليس هو أبو الفلسفة اليونانية كما قال عنه أرسطو الملقب
بالمعلم الأول . وقد ذكره في كتاب مابعد الطبيعة وقال عنه : إنه
مؤسس الفلسفة ، واستشهد بقوله : إن الماء مصدر جميع
الأمياء ، وذكره في كتاب السماء واستشهد بقوله : إن الأرض
جسم يطفو على الماء . وذكره في كتاب النفس واستشهد بقوله :
إن المغناطيس ذو حياة لأنه يقدر على تحريك الحديد . وذكره في
كتاب السياسة ، وروى من أخباره أنه أدخل بعض التحسين
على معاصر الزيتون وجمع ثروة حسنة بهذا الاختراع .

وفي الأخبار التي جمعها عنه كتاب « المرشد إلى من قبل
سقراط من الفلاسفة » أنه عرف أسباب الكسوف والخسوف ،
وأنه كشف منزلة الدب الأصغر من منازل الفلك ، وأنه أدخل

الفلسفة من مصر إلى بلاد اليونان ، واهتدى إلى قواعد تمكنه من قياس مسافة البعد بين الشاطئ والسفن في البحر ، وتمكنه من قياس ارتفاع الهرم بقياس ظله ، كما اهتدى إلى بعض النظريات في حساب المثلثات والدوائر ، ويقول الكتاب بعد ذلك : إن المصادر المختلفة تنبئنا بأنه تعلم الهندسة من المصريين وأنه وخلفاءه كانوا تلاميذ للبصريين والكلدانيين . وكان ولا ريب مدينا بالكثير مما عرفه في هذين العليين اللذين اشتهر بهما . . . وإن كان المفهوم أنه استخدم الأساليب العلية في تنظيم هذه المعرفة (١) .

وماله معناه الظاهر في نسبة المعارف التي استخدمها طاليس إلى مصادرها أنه كان معدودا من « حكماء اليونان السبعة » وأن هؤلاء الحكماء كانوا أشبه « هيئة مستقلة » لا تنقص عن هذا العدد ، ويضاف إليها بديل ممن يخرج منها إذا ثبت أنه أقحم نفسه على الهيئة بسلطان الإمارة أو الرئاسة .

ولا يخفى أن « ندحة السبعة » في كل اقتراناتها ترجع إلى مصادرها الأول من بلاد ما بين النهرين ، حيث يتكلمون عن السيارات

(1) Companion to Pre-Socratic Philosophers
by Kathleen Freeman

السبع وعن الأيام السبعة وعن السوابيع المتعددة في أعمار
الأكوان ، وقد كان طاليس يعيش في ليديا من بلاد آسيا
الصغرى ، ويتلقى معلوماته من قبلها في مسائل الفلك ومسائل
النظريات الكونية وأصول الخلق والحياة ، وكان تلميذا
للبريين في العلوم الرياضية كما يقول مؤرخوه .

فإذا قيل إن الفلسفة ليست بالاستثناء في شئون الثقافة التي
نقلها اليونان عن الشرق فهو الواقع الذي تتفق عليه مصادر
التاريخ ومراجع الفلسفة ، وإن كانت الفلسفة اليونانية قد تطورت
كثيرا بعد طاليس ونظرائه من الحكماء ، حتى أصبحت في عصر
أرسطو وتلاميذه الأولين جدية بالانتساب إلى اليونان دون
غيرهم من أمم الثقافة والحضارة في الأزمنة الغابرة .

فلا نكران لفضل الفلسفة اليونانية على الفلسفة القديمة
بمدارسها المختلفة ، ولكن الادعاء الذي ينكره كل منصف أن
اليونان قد امتازوا بفلسفتهم لأنهم أبناء القارة الأوروبية وأصحاب
«الذهن» ، الإنسانى المتفرد بين أذهان البشر بمزايا البحث الطليق
وحب الاستطلاع لمحض العلم والاطلاع .

فالليونان لم يتفردوا بهذه الفلسفة في جميع عصورهم ، ولم يزد
عصر فلسفتهم الممتازة على ثلاثة قرون ، منها مائة سنة على الأكثر

تفرغت فيها فلسفتهم للبحوث الخالصة في حقائق الوجود وأصول
الأشياء على قدر المستطاع من تفرغ الفكر الإنسانى لهذه الأمور .
وسبب ذلك راجع إلى ظروف خاصة تتغير فيتبعها التغيير
في نتائجها حينما كانت وحيثما كان التغيير .

نشطت حركة الفلسفة اليونانية في العصر الذى شاعت فيه
الكتابة على الورق وتيسرت فيه المواصلات بين بلاد اليونان
وما حولها من البلاد الآسيوية والأفريقية .

ولم تنشط مع ذلك إلا لأنها قد نشأت في بلاد لم تحكمها دولة
عريقة ، ولم تكن فيها إلى جانب الدولة الحاكمة دولة من دول
الكهانة التى تتأصل في البلاد وتتوارث فيها أسرار المعرفة والبحث
في أصول الخلق والحياة ، أو في المسائل الإلهية التى يستأثر بها
الكهان ورؤساء الدين .

فالبلاد التى تجرى فيها الأنهار الكبيرة تقوم عليها الدول
المتمكنة ، وتقوم معها إلى جانب الدولة الحاكمة دولة دينية من
الكهان ورؤساء الدين يسيطرون على شئون العقيدة ومباحث
الفكر في أسرار الطبيعة وما وراءها من الغيب المجهولة . وعلى
هذه السنة قامت كهانات الهند وما بين النهرين ووادى النيل فأنفرد
الكهان بالمعرفة الغيبية ولم يأذنوا لغيرهم — خارج المعبد — في

بحث هذه المعرفة ودراسة « الفلسفة » التي تقوم على تحقيق
« الوجود ، لذاته وتحقيق صفات الموجودات العليا والموجودات
المقدسة التي كانوا ينعنونها باسم الآرباب .

ولم تكن في اليونان دولة متمكنة ولا كهانة ذات سيطرة
على دولتها الصغيرة ، فانتسح أمامهم مجال البحث غير متحرجين
فيه ولا محاسبين عليه ، وعمدوا إلى العلوم التي استفادوها من
الشرق فقالوا فيها ما يقوله كل باحث منطلق اللسان يتحدث
بما يشاء كما يشاء .

على أنهم ما لبثوا جيلا أو جيلين حتى اصطدموا بسلطان
الدين وسلطان الدولة ، فقتل سقراط وتشرد أفلاطون وقضى
أرسطو بقية حياته في عزلة وإهمال ، وكان عدد الهاربين من
فلاسفتهم أكثر من عدد المقيمين الآمنين .

• وكذلك حدث في القارة الأوروبية بين صميم الأوربيين بعد
قيام السلطة الدينية بينهم وانفرادها بالتفكير في المسائل الإلهية ،
فإن القرون الوسطى لم يظهر فيها فيلسوف أوربي واحد ، ولم
يظهر فيها من ظهر بعد ذلك من فلاسفتها غير تلاميذ الشراح من
العرب الأندلسيين .

ونحن لانعلم من آثار الشرقيين الأقدمين أنهم تركوا « فلسفة »

تبحث في أصول الوجود بغير صبغتها الكهنوتية ، ولكننا
لا نستطيع من أجل ذلك أن نجزم بانقطاع تفكيرهم في هذه
البحوث ولا بقصورهم عن إدراك مداها ، لأنهم لم يتركوا لنا
كذلك كتباً مفصلة عن علوم الفلك والرياضة والكيمياء التي
لا شك في اشتغالهم بها وتطبيقهم لها في بناء الهياكل ونقش
الجدران وتخطيط الموقر ورصد الكواكب وسياسة الأنهار ، وكل
ما نستطيع أن نجزم به أنهم لا يعلنون ما عرفوه ولا يدل كتابهم
له على جهلهم إياه .

ولسنا نريد بإثبات فضل الشرق أن نبخس فضل اليونان في
ترقية الفلسفة ، ولكننا نقرر الواقع حين نقول : إن الذين
يتخذون الفلسفة اليونانية ذريعة إلى اتهام الشرق بالقصور
ينحرفون عن سنة الإنصاف ويتورطون في ادعاء لا دليل عليه .

تلاميذ أبردوت

إن الموقع الجغرافي أنفع لنا في المساعدة على تمحيص الروايات التاريخية التي لا تسلم — مع طول الزمن — من الخرافة ومن الإضافة ، أو من الخلط وسوء النقل والحكاية . فإن للموقع الجغرافي مقتضياته التي نفهم منها ما يجوز ، وما يمتنع ، وما يحتاج إلى السند أو يستغنى عنه أو يكتفى منه باليسير .

وموقع بلاد اليونان ينبئنا بالعلاقة التي توجد بينه وبين الحضارات الشرقية ، أو توجد بينه وبين حركات الأمم في أدوار هجرتها — واستقرارها منذ فجر التاريخ .

فلم تنقطع علاقتها بالشرق منذ خمسة آلاف سنة على الأقل ، ولم تكن علاقتها بالشرق في هذه العصور إلا علاقة التلبذة المتتابعة على الثقافات المتتابعة فيه ، لا سيما الثقافة الروحية وثقافة النظرة الكونية العامة ، وتأق بعددها ثقافة المعيشة المستمدة من الصناعة وعروض التجارة .

ونحن اليوم نسمع كثيراً عن المناظرة بين الجنس الآرى والجنس السامى ، وعن مزايا كل من الجنسين فى التفكير ومبادئ الأخلاق ، وعن اقتدار كل منهما على إنشاء الثقافة وحفظ الحضارة وتقويم القيم الاجتماعية والنفسية . ويدور هذا البحث كله أحياناً على مزايا اليونان فى طلب المعرفة لأنهم آريون وأورييون ، مكانهم من ثقافة أوربة الحديثة مكان الرواد الأسبقين ، والباكورة التى تدل على الشجرة وعلى ما تحمله من ثمارها فى كل أوان .

فإذا ابتدأنا بالمسألة كلها من البداية فالآرية نفسها صفة لم يكسبها اليونان من غير الشرق ، ولم تظهر فيهم مزية من مزاياها بغير العلاقة التى اتصلت بينهم وبينه بعد انفصالهم عنه فى زمان الهجرة الآرية .

فقد يكون اليونان آريين قدموا مع السلالة الكبرى التى انتقلت من أواسط آسيا إلى أوربة الشرقية والوسطى ، وقد يكونون سكاناً أصلاء فى أوطانهم غلب عليهم أولئك الآريون المهاجرون وصبغهم بصبغتهم فلم تبق لهم لغة غير اللغة الآرية ، ولا عقيدة غير عقيدة الآريين الأولى فى الدين والإله والخلقة . فهم على الحالين منتسبون إلى الشرق فى ثقافتهم ، ونسبتهم

هذه هي سر امتيازهم على إخوانهم الآريين الذين ذهبوا في الهجرة إلى أواسط أوربة وما وراءها .

إن الآريين الذين استقروا في القسارة الأوربية وراء بلاد اليونان إلى أقصاها غرباً وشمالاً قد عاشوا مئات السنين على همجيتهم الأولى فلم تنفعهم مزاياهم الآرية في ابتداع ثقافة خاصة فتتسب إليهم ولا في اقتباس ثقافة من الشرق بعد ارتقائه وامتداد عمرائه لأنهم فارقوه وانهطعت صلات العلم والتجارة بينهم وبينه .

فليست « الآرية » إذن منبع الثقافة اليونانية وسر الامتياز والتفوق الذي يخصهم به خلفاؤهم من الآوريين المحدثين ، ولكنها الصلة بالشرق والاستفادة منه والتلبذة عليه ، فيزهم بها موقعهم الجغرافي فرجحهم على سكان المواقع النائية من إخوانهم الآريين .

وفي المرحلة الأولى قدم آباؤهم الأولون من القارة الآسيوية بعقائدهم الروحية كما أخذوها من منبعها ، ويكفي منها ذكر اسم الإله عندهم « ذيوس » وهو من الهندية القديمة ، وذكر أبي الأرباب عندهم وهو اسم مركب من كلمتين بتلك اللغة وهما : « داوس پاتر » : أى أبى الأرباب (جوييتير) ... وما بقى من

تفصيلات ديانتهم المنسية ومعبوداتهم الأخرى فهو مركب على اعتقادهم برئيس جميع المعبودات وأبي الأرباب .

والمرحلة التالية لمرحلة الهجرة القديمة هي مرحلة الكتابة والصناعة ، سواء جاءت من هجرة قدموس وزمرته الفينيقية ، أو من هجرة تماثلها في مصدرها ، فإنها من ثمرات الموقع الجغرافي الذي قربهم من أسباب التلذذة على الشرق المجاور لهم والاستفادة من حركات شعوبه .

وتأتى المرحلة الثالثة بعد ميلاد السيد المسيح ، فليس دخول اليونان في المسيحية إلا مرحلة في السبيل المطروق من مراحل التلذذة على الثقافة الشرقية : أدبية أو صناعية أو روحية .

ولم تكن مرحلة المسيحية خاتمة المراحل في هذه التلذذة العريقة فإن الفتوح العثمانية أوشكت أن تفتح في بلاد اليونان وما جاورها عهد ديانة جديدة ، لولا اشتداد شيوخ الإسلام في قتاوهم على الدين . الصريحة التي حرموا بها على السلاطين إكراه أهل الذمة .

وهذا هو حكم الموقع الجغرافي إلى جانب حكم التاريخ وحكم الآثار الباقية :

حكم الموقع الجغرافى أن اليونان تلاميذ دطبيعينيون ، لكل
ثقافة شرقية ، كلما كانت للشرق ثقافة غالبة . فإذا وقف هذا
المورد عند حد من الحدود أو وراء حاجز من الحواجز ،
فذلك هو الحاجز الذى يصد السيل عن مجراه ويتحول به إلى
ينبوع سواء .



ثم الثقافة العبرية

إن سبق العرب للعبريين في ثقافتهم الدينية أوضح من سبقهم لليونان في ثقافة المعرفة وصناعات الحضارة .
ووقائعه وقرائنه أقرب سسنداً من الوقائع والقرائن التي ألمنا بها في الصفحات السابقة ، لأن السند القريب هنا مستمد من أسفار التوراة ومن أحوال المعيشة التي لا محل للخلاف عليها .
وقد أوجزنا القول فيما تقدم على العلاقات القديمة بين ثقافة العرب وثقافة اليونان بالقدر الذي تنسج له هذه الصفحات القليلة .

وسنكمل القول فيما يلي على بيان العلاقات القديمة بين ثقافة العرب وثقافة العبريين في الناحية الدينية ، وتبدأ هذا البيان بما لا بد منه من تحقيق أصل العبريين وأطوار العلاقة بينهم وبين الأمة العربية إلى ما بعد ظهور الأنبياء والرسل في بني إسرائيل .
فن هم العبريون ؟ وما هو أوثق الأقوال عن نشأتهم الأولى قبل أيام إبراهيم عليه السلام ؟

إن أوثق الأقوال عن نشأة العبريين منذ أربعين قرناً على وجه التقريب أنهم قبيلة بدوية صغيرة عاشت زمناً في جنوب بلاد العرب إلى الشرق ، وبقيت فيه على حالة بين الإقامة والترحل إلى مسافات قريبة حتى انتقلت — مع ملازمتها الشاطيء — إلى جنوب وادي النهرين .

ويستدل على تاريخ هذه القبيلة من تاريخ الدابة التي كانت تعتمد عليها في الرحلة وحمل الأثقال ، وهي الحمار *Asinus Asiniv* فهذا الحيوان كان يوجد في حالة الوحشية على مقربة من السهول الرملية في جزيرة العرب ، ويصل أحياناً في قطعائه المجفلة من السباع إلى أرض حوران .

ويظهر أن العبريين استخدموا هذا الحيوان وهو قريب من حالته الوحشية ، لأنه كان في تلك الحالة يميل بلونه إلى الاحمرار على اقتراب من ألوان الرمال التي يعيش فيها . ومن هنا اسم « الحمار » واسم اليعمور الذي يطلق على الحمار الوحشي في اللغة العربية .

ويظهر أيضاً أنه بقي عندهم زمناً طويلاً على هذا اللون حتى تغير لونه بعض الشيء وتولدت منه الحمر البيضاء ، بعد طول التدجين والعناية « المدنية » : أي بعد انتقال العبريين من البادية

إلى جوار المدن ، وترددهم بين معيشة البداوة ومعاهد الحضارة ، فأصبحت الحمر البيضاء مطية لذوى الرئاسة والثروة من القوم . وفى ذلك يقول سفر القضاة من اصحابه الخامس مخاطباً أولئك الرؤساء : « قلبى نحو قضاة إسرائيل المنتدبين فى الشعب : « باركوا الرب أيها الراكبون الآن الصحر الجالسون على الطنافس » : أى لثاى الحمر المبيضة اللون .

واستخدام الحمار يدل على كثير من أحوال العبريين إلى جوار القبائل التى تستخدم الجمال للسفر إلى المسافات البعيدة ، ونقل الأحمال الثقيلة ، ونزول المراعى المنبعة التى لا تستباح لغير ذوى القوة والكثرة من قبائل الجزيرة... فإنما يستخدم الحمار للمسافات القصيرة والأحمال الخفيفة بالقياس إلى أحمال الجمال ، ويسير الحمار فى غير المنافوز الرملية التى تسلكها الإبل ، ولا يتعد وقتاً طويلاً عن موارد الماء الميسرة بغير عناء مجهد وبغير حاجة إلى الحماية القوية أو إلى كثرة العدد ووفرة السلاح .

فالعبريون فى نشأتهم قوم ضعاف قليلون فى العدد ، مضطرون إلى الاكتفاء بالمعيشة التى يتركها سادة الصحراء زهداً فيها واستغناء عنها ، ونسكاد نعلم من ذلك مواقع نشأتهم الأولى قبل وفودهم إلى العراق وبعد مقامهم فيه إلى أيام الخليل لإبراهيم .

فهذا الموقع لا بد أن يكون قريباً إلى الشاطئ . قريباً إلى الحاضرة ، يقيم فيه أناس لم يتفرغوا للبدوة في جوف الصحراء ، ولم يتفرغوا للإقامة في الحواضر العامرة ، ولكنهم عاشوا بين البادية والحاضرة يؤدون الأعمال التي تتطلبها الحاضرة من البادية وتطلبها البادية من الحاضرة ، وهي في الغالب أعمال وساطة وسمرة هادئة لا تضطربهم إلى الاقتحام والغلبة في معاملة أهل المدينة ولا في معاملة أهل الصحراء ، ولا تضطربهم إلى الحوزة القوية لتحصيل القوت لهم وللدواب التي يستخدمونها . فإنهم يأخذون ما يحتاجون إليه من المدن جزاء أعمالهم في الوساطة بينها وبين البادية ، ولا يحتاجون إلى كثرة عدد ولا وفرة سلاح لاقتحام مراعى الصحراء البعيدة ، إذ كانت دوابهم تقنع بالقليل من العلف والمرعى وبالقريب من موارد الشرب والسقاية ، وهم في وساطتهم المتبادلة يعولون على الرضى والطلب ولا يعولون على القهر والاغتصاب .

وفي هذه المعيشة البدوية الحضرية يمكن كل سر من أسرار التاريخ العبرى من فجر التاريخ إلى العصر الحاضر ، وإليها يرجع تحليل المشكلات والأزمات التي تعرض العبريون أو عرضوا لها ، أنفسهم ولا يزالون معرضين لها حتى هذه الأيام .

فهم قبيلة لم تتطور ، وقد ظلت بين البادية والحاضرة قبيلة لم تستوف أطوار البادية ولم تتحول إلى أطوار الحضارة شعباً « مدنياً » ، يتمشى مع الحياة المدنية على سنة جميع الشعوب ، ولازمتها زيادة المعيشة على السمسرة والوساطة فلم تتقدم إلى آخر الشوط في تثير أعمال البدو ولا في تثير أعمال الحضر ، فهي في حالة العزلة الاجتماعية وما يلازمها عند البدو من عزلة «العصية» بالدم والسلالة .

ومشكلة العبريين قديماً وحديثاً هي هذه المشكلة : هي مشكلة « التحجر » على حالة القبيلة وحالة « العصية » بالدم والسلالة . وعقيدتهم في جوهرها هي عقيدة عصبية منعزلة ، تؤمن بإله تعبده لأنه إلهها ، وهو الإله الذي يرعاها لأنها شعبه الذي يحاياه بين الشعوب لغير سبب ولغير فضيلة فيه غير أنه شعبه المختار لديه . وهذه حالة من العزلة « المتعصبة » لا بد أن تسوق القوم إلى اصطدام عنيف بينهم وبين جيرانهم من جانب البادية ومن جانب الحاضرة ، ولا بد أن يقع فيها ذلك الشعور التافر بين صاحب المال وبين الوسيط والسمسار ، كلما تحركت المطامع وتعسرت المنافع ، ونشبت المنازعات في البيئة ، ولو كان نشوبها لسبب غير السمسرة والاستغلال .

ولا يدري على التحقيق هل سمي العبريون بهذا الاسم لأنهم يتنسبون إلى عابر بن سام ، أو لأنهم عبروا نهر الفرات بعد قدومهم إلى وادى النهرين . ففي سفر يشوع يقول يشوع للشعب كله : « هكذا قال الرب إله إسرائيل . آباؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو إبراهيم وأبونا حور ، وعبدوا آلهة أخرى ، فأخذت إبراهيم آباكم من عبر النهر وسرت به في كل أرض كنعان » .

إلا أنهم — لضعفهم — كانوا يلوذون في كل موطن سكنوه بمن هو أقوى منهم من القبائل التي تلتقي بهم في أصولهم ويحتمون بمصايرها من أعدائهم . ففي سفر التكوين أنهم انتسبوا إلى الأصل الآرامى حين أرسل إبراهيم عليه السلام رسوله لخطبة رفقة بنت بتوئيل الآرامى . فقال له : « إلى أرض وعشيرة تذهب وتأخذ زوجة لابنى .. »

ولما نزلوا أرض كنعان جعلوا لغتهم لغة كنعانية . وقال أشعيا وهو يتنبأ بغلبة قومه على أرض مصر إنه « في ذلك اليوم يكون في أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان » .

ولم يزلوا في هجرتهم من موطن بعد موطن بين العراق وحوران وكنعان يعيشون إلى جوار القبائل ولا يتغلبون على واحدة منها في وقعة فاصلة حتى لجأوا إلى مصر وعادوا منها بعد

عدة قرون إلى الأرض التي سموها بأرض الميعاد ، ولم يتفقوا
 على حدودها حتى ملكوا أسباب القوة التي أطمعتهم في الغلبة عليها .
 والعرف الشائع بين العبريين أنهم يتشاءمون تشاؤماً « تقليدياً »
 بالأيام التي قضوها في مصر ويحسبون بها بلية البلايا ، ومحنة المحن
 في تاريخهم كله من عهد الخليل إلى عهد النازية الهتيرية في القرن
 العشرين . وقد مرت بهم محنة السبي إلى وادي النهرين ولكنهم
 لا يتشاءمون بها كما تشاءموا بالمقام في مصر ، ولا يجعلون الخروج
 من بابل عيداً باقياً متجدداً كعيد الخروج من أرض وادي النيل .
 أما الواقع المعروف بنتائجه الكثيرة فهو على نقيض ما قدره
 وأوجبوه على أنفسهم من تقاليد « الحداد » وتقاليد الأعياد .
 فإنهم لم يستفيدوا قط من هجرة في تاريخهم كله كما استفادوا
 من هذه الهجرة المصرية ، لأنهم نعموا بالعيش الرغيد في جوار
 النيل ، وتعلموا من آداب الحياة وشرائط الصحة ما زاد في عددهم ،
 وزاد في خبرتهم بتدبير أمورهم والدفاع عن أنفسهم . فأصبحوا
 يعدون بمئات الألوف ، ويحسنون حمل السلاح وتنظيم الزرع
 والحصاد ، ويصلحون لئزال القبائل البادية التي أعياهم أمرها قبل
 خمسة قرون وتركوا لها الأرض اعتصاماً بمصر وهم بضع مئات
 أو بضع عشرات .

وليس الفضل في هذه الزيادة وهذا التقدم لطول الزمن بين دخولهم إلى مصر وخروجهم منها ، فإن القبائل التي تركوها في البادية بقيت كما كانت قبل خمسة قرون ، ولم تبلغ في زيادتها ولا في تقدمها بعض ما بلغوه وادعوا قانعين بجوار النيل .

ولولا هذه الزيادة في عددهم وفي خبرتهم لما استطاعوا أن يقاتلوا قبائل البادية التي كانوا يهابونها ويهربون منها ، ولا استطاعوا أن يهزموها ويطردوها من مواقعها إذا اجتروا على قتالها ، ولا تأتي لهم من دواعي الاستقرار في أرض كنعان ما يعينهم على إقامة الملك وبناء الهياكل من الحجارة بدلا من العرائش والخيام ، ومهما يكن من بلاء أصابهم في مصر فهو بلاء استحقوه واستحقوا أضعافه في بلاد العالم القديم شرقية وغربية . ثم لازمتهم آفتهم الخالدة بعد إقامة المملكة وتعاقب العروش زهاء أربعة قرون ، فلم يفارقوا نظام القبيلة بعد محاسنهم لجيرانهم في نظام الدولة ، ولبشوا في دولتهم كما لبشوا في هجرتهم قبيلة معزولة عن الأمم ، بل سبطا معزولا عن سبط في داخل القبيلة ، وظلت لهم شريعة « العصبية القبلية » دستورا يصلح لهم وحدهم في تقديرهم ، ولكنه لا يصلح لتنظيم الدولة التي تجمعهم بغيرهم في كل تقدير .

فلم يزلوا من قيام المملكة إلى ما بعد ميلاد السيد المسيح
يحرمون بينهم ما يحلونه بينهم وبين غيرهم ، ويعملون بما جاء
في سفر التثنية حيث يقال : « للأجنبي تقرض الربا ولكن
لأخيك لا تقرض ربا لكي يباركك الرب إلهك » . . . فهو ربه
وإلهه وليس رب ولا إله للآخرين .

وظلوا يحصرون العصية في أضيق حدودها بين الأسباط
في القبيلة الواحدة ويتشددون في حصر كل سبط بميراثه إلى
أعقاب الأعقاب .

ففي الإصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد أنه « لا يتحول
نصيب إسرائيل من سبط إلى سبط . بل يلزم بنو إسرائيل كل
سبط نصيب سبط آبائه ، وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط
بنو إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها لكي
يرث بنو إسرائيل كل سبط نصيب آبائه ، فلا يتحول نصيب من
سبط إلى سبط آخر ، بل يلزم كل واحد نصيبه كما أمر
الرب موسى » . .

* * *

ولا ضرورة للبحث الطويل في سبب الفشل الذي يلحق بدولة
من الدول تقوم على مثل هذا النظام ، وتقوم من ورائه على

مثل هذا الشعور ، فإنه نظام يقف عند حدود القبيلة ويقتصر عن التقدم وراء ذلك خطوة في طريق الحياة القومية ، فضلاً عن الحياة العالمية .

ومن فضول القول أن يتحدث نقاد التاريخ والمعقبون على أطوار الاجتماع عن « رسالة عالمية » ، يستفيدوا العالم من هذه « العصبية القبلية » ، بعد تطور الأمم والشعوب وتطور العلاقات العالمية وتطور العقائد والآداب . فإن « الفكرة العالمية » لا تتولد في طور من أطوارها من مثل هذه الدعوة الدينية أو العنصرية ، بل يكون تقويض أساس هذه الدعوة شرطاً لازماً لمجرد تصحيح النية وتوجيه الرغبة إلى الفكرة الإنسانية العامة والثقافة التي تستفيد بجميع الشعوب ولا تكون وفقاً على شعب واحد دون سواه .



العبرية والعالمية

نعم إنه لمن فضول القول أن يقال عن ثقافة دينية محصورة في هذا الحيز المحدود إنها رسالة عالمية ، أو أنها يمكن أن تسفر قبل ذوالها عن رسالة عالمية .

لكن الأمر يتجاوز فضول القول إلى فقدان الحياء حين يقال : إن العبرية هي التي نهضت بأمانة الرسالة العالمية في تاريخ بني الإنسان ، وأن تنعقد المقارنة بينها وبين حضارات الشرق في وادى النيل وفي وادى النهرين وفي شبه الجزيرة العربية . فيقال : إن تلك الحضارات جميعا لم تحفل بمبادئ الأخلاق ولم تقرر قواعد العدل والفضيلة ، وأن أربابها لا تنفض للواجب والحق كما غضب لها رب العبريين : رب الصواعق والجنود .

ولا موجب — فيما نرى — لتفصيل الكلام على آداب الحضارات قبل ظهور العبريين وقبل شيوخ تلك الحضارات بين الشعوب والأقوام الذين تقدموا ورام آداب العصبية المحدودة أشواطا لا يتسع لها هذا المجال . فربما كان استقصاء المدى المعروف الذى بلغته الدعوة العبرية من أيام الخليل إلى أيام السيد

المسيح تصحيحا كافيا لتلك الدعوى التي يدعيها المبشرون بما يسمونه « الرسالة العالمية » من قبل العبريين .

إن طاعة الإله في عرف العبريين ليست مسألة فضيلة وأخلاق تحمد من كل إنسان فاضل وكل آدمي ذى خلق كريم ، بل هى مسألة علاقة بين رب « عبرى » يختص نفسه بشعب يختاره ويغار عليه ، وبين شعب يدين لذلك الإله بين آلهة الأمم لأنه يخافه ويشعر بقوته وانتقامه، ويرى أنه أقدر على الانتقام من جميع الأرباب. ويقول هذا الإله كما جاء فى سفر التثنية : « أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة » .

ويقول كما جاء فى سفر الخروج : « رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة » .

ويقول أنبياؤهم تارة : إنه شعب ثقيل الإثم ، وتارة : إنه شعب لا يفهم . ويعيد كل نبي ما سبقه إليه الأنبياء من وصفه بالضلالة والنفاق والقسوة وقلة الوفاء ... ولكن هذا الشعب يعلم — مع كل ذلك — أن الله يختاره لأنه شعبه وعصبته ... وأنه كما جاء فى سفر التثنية « ليس لأجل بركة يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة » .

أما هذا الشعب فإنه يدين لهذا الإله ويختاره من بين الأرباب

لأنه : « إلهكم وهو إله الآلهة ورب الأرباب ، الإله العظيم الجبار
المهيّب »

ويناديه الإله فيقول له كما جاء في سفر الخروج : « لا تسجد
لهن ولا تعبدن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور أفققد ذنوب
الآباء فى الأبناء ، فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى . . .
نعم ؛ كما تسرى شريعة الثأر فى الجاهلية من الآباء إلى الأبناء ،
ومن الأخوة إلى الأخوة ، ومن الجار إلى الجار .

ويتكرر النذير من الإله الغضوب غير مرة « لأن الرب
إلهك هو نار آكلة . إله غيور . . . فلا تسيروا وراء آلهة
أخرى من آلهة الأمم التى حولكم لأن الرب إلهكم إله غيور . .
ويجرى هذا النذير من الأسفار المنسوبة إلى موسى عليه السلام
إلى الأسفار التى كتبها آخر الأنبياء من بنى إسرائيل .

ولم تنفج حلقات هذه العصية بعد توالى الضربات على القوم
من جراء تعنتهم بالآثمة وإنكار الحقوق الإنسانية على الأمم ،
أو على «الجويم» كما يسمونها بمعنى الغرباء أو الدخلاء ، بل كانت
هذه العصية تنحصر من دائرة إلى دائرة أضيق منها وأشد فى
التمييز والاستئثار من سوا بقها . فكانت صفوتهم المختارة أبناء
إبراهيم إلى أبناء آبائه وحفدته فاذا هى تنحصر بعد ذلك فى أبناء اسحق

بنى إسرائيل ويدعو القوم أنفسهم من أجل ذلك بأبناء إسرائيل ،
ثم انحصرت صفوتهم المختارة في بني هرون آل موسى الأقرين
عليه السلام ، ثم انحصرت في أبناء داود عليه السلام بعد قيام
المملكة . وقيل من أجل ذلك إن المسيح المنتظر لا يكون من غير
ذريته وورثة عرشه ، وكانت الوعود السماوية المزعومة تنقل على
هذا المثال جيلاً بعد جيل تبعاً للتنقل في مراكز الرئاسة والقدرة
على مرضاة كهان الهيكل ودعاة النبوة .

وكان بعض أنبيائهم من حين إلى حين يفتنون لويال هذه
العصبية ويعترفون للأمم بشيء من الحق في النعمة الإلهية ، إنذاراً
لقومهم بعاقبة التماهى في مساوئهم ونزواتهم واتكالمهم على اختيار
الإله لهم دون سواهم بغير فضيلة فيهم ولا اجتهاد من جانبهم ،
ولسكنها فلتات تعرض لأولئك الأنبياء كلها أزججهم مصير قومهم
وصدمتهم فوارق المقابلة بينهم وبين الأمم التي تفضلهم وترجع
عليهم ، ثم تذهب الصيحة بغير صدى وتعقبها نوبة من نوبات
العصبية أشد وأعنف من نوباتها الغابرة ، وامتدت رسالات أنبيائهم
وتلتها الدعوة المسيحية وهم على أشد ما كانوا تعصباً للدم والسلالة
وإنكاراً للحقوق الإنسانية على كل من عداهم من « الجويم »
المنبوذين في اعتقادهم .

وقد استهل السيد المسيح رسالته بتوجيه الدعوة إلى « خراف إسرائيل الضالة » ، وإيثار « البنين » ، بالتحيز على الغرباء ، فأعرضوا عنه ورفضوه ، وكادوا له المكاييد واتهموه ، فاتجه آخر الأمر بالدعوة العامة إلى المستمعين إليها من سائر الأمم ، وضرب المثل بصاحب الدار الذي دعا الأقرباء وأبناء الأسرة إلى وليمة عرسه فتعللوا له بالمعاذير وقاطعوه في داره ، فأرسل غلبانه يدعون إلى الموائد المهجورة كل عابر سبيل .

وظلوا إلى عهد الرسولين بطرس وبولس ينكرون على العبري أن يتناول الطعام مع غير العبريين ويحتدمون غيظاً إذا قيل لهم إن دعوة الهداية تتجه إلى الأمم كما تتجه إلى بني إسرائيل ، فجاء في الاصحاح الحادى عشر من أعمال الرسل أنهم خاصموا بطرس يوم صعد إلى أورشليم لأنه دخل بيوتاً لغير المختونين وأكل مع أهلها . وجاء في الاصحاح الثانى والعشرين من أعمال الرسل أن بولس الرسول كان يصلى فى الهيكل فقال لمن فيه إن الله أمره أن يذهب إلى الأمم لأنه سيرسله إلى الأمم بعيداً . . . فسمعوا له حتى هذه الكلمة ثم رفعوا أصواتهم قائلين : خذ مثل هذا من الأرض لأنه كان لا يجوز أن يعيش ، وإذا كانوا يصرخون ويطرحون ثيابهم ويرمون غباراً إلى الجوف أمر الأمير أن يذهب به إلى

المعسكر ، وأن يضرب ليعلم لآى سبب كانوا يصيحون به هذا الصياح ويشقون الثياب ويشيرون الغبار سخطا عليه .

* * *

والثقافة الدينية التى من هذا القبيل ليس من شأنها أن توحى إلى أصحابها برسالة عالمية ، وإنما شأنها عندهم كشأن حقوق الميراث فى أقرباء الدم والعصية ، لا ترى أحداً من أصحابها يدعو الناس إلى مقاسمته فيها ، بل كل همهم إذا استطاع أن يحتجزها لنفسه ويقصى الناس عنها ، وهذه شيمة نعهد لها فى سلالة العبريين إلى وقتنا هذا فلا نرى أحداً منهم يعنيه تبشير الناس بمذهبه وهداية « الأجنييين » إلى ملته ، كما يعنيه أن يتألب ويتعصب مع أبناء عصبته على تباعه الديار .

وإذا تركنا جانب الثقافة الدينية والتفتنا إلى جانب الثقافات الأدبية والفنية أو الثقافات الفلسفية والأخلاقية لم نجد عند القوم منذ كانوا نصيباً من هذه الثقافات يفيدون به العالم باختيارهم أو يفيدوه العالم على الرغم منهم .

فهم فى أدوار حياتهم الثلاثة — دور البداوة ودور المملكة ودور الشتات فى أنحاء البلاد — لم يصدروا من عندهم ثمرة نافعة من ثمرات الآداب والفنون أو ثمرات العلم والفلسفة ، فلم يخرجوا

للعالم من أيام الخليل إلى أيام المسيح عالماً ولا أديباً ولا فيلسوفاً ولا رحالة مشتغلاً باستطلاع التواريخ أو بحائنة مشتغلاً بدراسة الأحياء والنباتات ومسائل التاريخ الطبيعي كما عرفت من قبل وكما عرفت اليوم ، وكل محصولهم من الكتب المقروءة فإنما هو تلك المواعظ والتراجم التي وقفوها على أنفسهم ، ولم ينبغ منهم مشتغل بالحكمة والدراسة العلمية قبل اتصالهم بأمم الحضارة واضطرارهم إلى المعيشة بين تلك الأمم في المشرق والمغرب .

ولما قامت لهم دولة لم تنهض لهم مع الدولة ثقافة أديبة ... ثم ذهبَت الدولة ولم تعقب بعدها أثراً من آثار الفكر أو الوجدان أو الذوق والخيال كتلك الآثار التي حفظها التاريخ ليكل دولة من الدول القديمة والحديثة .

أما في دور الشتات بعد دور البداوة ودور الدولة فلم يكن لهم مجتمع واحد تنسب إليه ثقافته ولا تنسب إلى غيره ، ولكنهم ظلوا في دور الشتات عالة على ثقافات الأمم كلها ينبع منهم نابغ بين أبنائها ، فليست لهم ثقافة مستقلة عن ثقافات العرب والمصريين في العصر القديم ، ولا عن ثقافات الألمان والفرنسيين والإنجليز والأمريكيين وسائر الأمم المثقفة في العصر الحديث . وإذا أحصينا نوابغهم ونوابغ الأمم الأخرى وجب أن

يكونوا أضعاف ذلك عددا وكفاية كما يكون المستفيدون من عشرين أو ثلاثين ثقافة متنوعة بالقياس إلى المستفيدين من ثقافة واحدة في مكان واحد . ولكنهم على خلاف ذلك أقل مما ينبغي أن يكونوا بهذه النسبة ونسبة أخرى غير النسبة العددية ، وهي أنهم يتعاونون بالتضامن — بل بالتعصب — في جميع البلدان، ويبدلون جهدهم للتتويه بنوا بغيرهم والإعلان عنهم وإهمال من عداهم من أقرانهم ونظرائهم ، ولا يخفي ما يعمل «التضامن» في إظهار الخفي وتكبير الصغير وتفخيم الضئيل ، فإن عشرة متضامنين متفاهمين على التعاون يملكون من أساليب الشهرة والتتويه مالا يملكه ألف متفرقون .

ولنا أن نقول بالتعبير الشائع في عصرنا إن هؤلاء العبريين منذ بداوتهم إلى هذا القرن العشرين قد كانوا مستنفدين ولم يكونوا قط منتجين ، وإن محصولهم في الثقافة العالمية محصول المستغل والوسيط ، وليس بمحصول المالك العامل الذي يعطي ويتج ما يعطيه .

الدين

فيما عدا احتكار النعمة الإلهية وعزلة العصبية في أضيق حدودها — لم يبدع العبريون شيئاً في ثقافة الدين

وأخذوا كل ما أخذوه من حولهم « مستنفدين » غير متصرفين في عقيدة من عقائده الكبرى ، الا ما تصرفوا فيه بالخرافة والأحجية والطمس والشعوذة والسحر على سذاجته الأولى بين القبائل البادية . وكان أكثر ما أخذوه منقولاً عن قبائل العربية الكبرى بين اليمن في الجنوب وقبائل الآراميين والكنعانيين في الشمال .

فلم يعرفوا كلمة « النبي » قبل اتصالهم بكنعان في الزمن الذي ظهرت فيه النبوءات العربية ، بما ذكره القرآن الكريم وبما ذكره هم عرضاً في أسفار العهد القديم .

وعرف العبريون نبوءات السحر والكهانة والتنجيم كما عرفتها الشعوب البدائية ، وابتكروا منها ما ابتكرت على سنة الشعوب كافة ، واقتبسوا منها ما اقتبست بعد اتصالهم بجيرانها في المقام من أهل البادية أو أهل الحاضرة ، ولكنهم على خلاف الشائع

بين المقلدين من كتاب الغريبين قد تعلموا النبوة الإلهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ، ولم تكن لهذه الكلمة عند العبريين لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين في أرض (مدين) . . فكانوا يسمون النبي بالرأى أو الناظر أو رجل الله ، ولم يطلقوا عليه اسم النبي إلا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة ، وهم ملكي صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذي يسمونه يثرون معلم موسى الكليم ، ويرجح بعضهم أنه الخضر عليه السلام للشابهة بين لفظ يثرون وخثرون وخضر في مخارج الحروف ، ولما ورد من أخبار الكليم مع الخضر عليهما السلام في تفسير القرآن الكريم . ومن علماء الأديان الغريبين الذين ذهبوا إلى اقتباس

العبريين كلمة النبوة من العرب الأستاذ هولشر Holscher والأستاذ شميدت Shmidt اللذان يرجحان أن الكلمة دخلت في اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين ، إلا أن الأمر غنى عن الخبط فيه بالظنون مع المستشرقين ، من يفقه منهم اللغة العربية ومن لا يفقه منها غير الأشباح والخيالات . فإن وفرة الكلمات التي لا تلتبس بمعنى النبوة في اللغة العربية كالعرفاة والكهانة والعيافة والزجر والرؤية ، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرأى

والنبي . وتاريخ النبوات العبرية التي وردت في التوراة سابق
لاتخاذ العبريين كلمة النبي بدلا من كلمة الرائي والناظر .
وتلذة موسى لنبي مدين مذكورة في التوراة قبل سائر النبوات
الإسرائيلية ، وإن موسى الكلیم ولا ريب هو رائد النبوة
السكبرى بين بني إسرائيل .

« والمطلع على الكتب الماثورة بين بني إسرائيل يتبين منها
أنهم آمنوا بهذه النبوات جميعا ، وأنهم بعد ارتقائهم إلى الإيمان
بالنبوة الإلهية ما زالوا يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم
ومطالب الهداية ويجعلون الاطلاع على المغيبات امتحانا لصديق
النبي في دعواه أصدق وألزم من كل امتحان ، ولم يرتفع كبار
أنبيائهم ورسلمهم عن مطلب الاتجار بالكشف عن المغيبات
والاشتغال بالتنجيم . ففي أخبار صموئيل أنهم كانوا يقصدونه
ليدلمهم على مكان الماشية الضائعة وينقدونه أجره على ردها . .
(خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فقتل عن الأتین . . .
فقال شاول للغلام : فإذا تقدم للرجل ؟ لأن الخبز قد نفذ من
أوعيتنا وليس من هدية تقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟ فعاد
الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدي ربيع شاقل فضة) ويؤخذ من
النبوءات التي نسبوها إلى النبي يعقوب جد بني إسرائيل أنهم

كانوا يقولون عليه في صناعة التنجيم . فإن النبوءات المقرونة بأسماء أبناء يعقوب تشير إلى أبراج السماء وما ينسب إليها من طوابع ومن أمثلتها عن شمعون ولاوى أنها أخوان سيوفهما آلات ظلم في مجلسهما لا تدخل نفسى ، لأنهما في غضبهما قتلا إنسانا وفي رضائهما عرقبا ثورا . . . وهذه إشارة إلى برج التوأمين . وهو برج إله الحرب زجال عند البابليين . ويصورون أحده التوأمين وفي يده خنجر ويصورون أخاه وفي يده منجل ، وتشير عرقبة الثور إلى برج الثور الذى يتعقبه التوأمان . ومن الأمثلة في هذه النبوءات المنسوبة إلى يعقوب مثل يهوذا (جرو أسد جثا وريّض كأسد ولبؤة ، لا يزول غضب من يهوذا ومشتزع من بين رجليه حتى يأقى شيلون وله يكون خضوع شعوب ... وهذه إشارة إلى برج الأسد ، وهو عند البابليين برجان يبدو أحدهما برج يشير إلى علامة الملك الذى تخضع له الملوك^(١)) إلى آخر ما شرحه الأستاذ أريك بروز Burrows في كتابه عن تنجيمات يعقوب

- Oracles of Jacob

* * *

(١) من كتاب حقائق الاسلام وأباطيل خصومه مؤلف هذه الرسالة .

وقد عبرت هذه الأطوار في فهم النبوة شوطاً طويلاً في حياة القبائل العبرية ، وتبلنوا في كل مرحلة منها لاستاذ من هداة العرب نساكاً ورسلاً مبعوثين بالرسالة أو أنبياء غير مبعوثين بها ، كما جاء في كتب التوراة وكما جاء في القرآن الكريم بمالم تذكره كتب الإسرائيلين ، وكله من شواهد التاريخ المعلوم عن سبق العرب إلى فهم النبوة وارتقائهم في الاستعداد لدرجاتها المنزهة عن شوائب الوثنية ، فضلاً عما يفوتنا العلم به حتى اليوم من شواهد التاريخ المجهول .



ابراهيم وموسى وداود يتعلمون

نعلم أسماء بعض الأنبياء وأسماء الأمم التي بعثوا فيها،
ولكننا لا نعلمهم جميعاً ولا تخصصهم لنا كتب الأديان



الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن . وفي ذلك يقول تعالى من
سورة المؤمن : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا
عليك ومنهم من لم نقصص عليك . . »

ونعلم من سير الأنبياء في التاريخ وفي الكتب الدينية أنهم
يتعلمون من عباد الله الصالحين ، وفيهم من تنبأ وأرسل ومن لم يكن
من الأنبياء أو المرسلين .

وفي سورة الكهف عن موسى عليه السلام وقته « فوجدنا
عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلماها من لدنا علما .
قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما عُلِّمتَ رُشدا . قال
إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . .
وبين أكبر الأنبياء المعلومين عندنا ثلاثة من الذين بعثوا
في العبريين وهم ابراهيم وموسى وداود عليهم السلام ، نعلم من

أخبارهم في أسفار التوراة كما نعلم من أقوالهم فيها أنهم تملنوا
لأناس من الأمة العربية ، وأن أساتذتهم سبقهم — بداهة —
إلى ثقافة الدين وإلى المعرفة الإلهية التي يطلبها الأنبياء
ويبحثون عنها .

وعلى أحد القولين يسمى إبراهيم عبرياً لأنه من نسل
عابر بن سام .

وعلى القول الآخر يسمى عبرياً لأنه هو وقومه عبروا النهر
إلى أرض كنعان .

وعلى كلا القولين يتسمى إبراهيم إلى قبيلة سامية من الجزيرة
العربية ، ويتنقل بين أرض آرام في المشرق وأرض كنعان
في المغرب — وكلتاها موطن المتكلمين بالعربية على أقرب لطبقاتها
وأطوارها إلى اللغة العربية الحديثة ، فالعرب العاربة كما تقدم
تتسمى كلها إلى الأرماني ، وأبناء كنعان ينسبون إلى أرضهم
الوطانة على أشهر الأقوال . وهي من مادة « كنع » . تشبها
في لغتنا الحديثة مادة « قنع » ومادة « خنع » ، في الدلالة على
الحفص والاطمئنان .

وقد تحول إبراهيم من أرض النهرين إلى أرض كنعان فروى
لنا سفر التكوين من التوراة في إصحاحه الرابع عشر أنه تلقى البركة

من ملكى صادق ... «وكان كاهناً لله العلى ، وباركه وقال : مبارك
ابرام من الله العلى مالك السماوات والأرض ، ومبارك الله العلى
الذى أسلم أعداءك فى يدك » .

وقد أعطاه ابراهيم العشر من كل شىء قرباناً إلى الله .
ويقول الإنجيل فى رسالة العبرانيين أن السيد المسيح صار
«على رتبة ملكى صادق رئيس كهنة إلى الأبد» .

ويقول بعد ذلك فى الإصحاح السابع عن ملكى صادق :
«إنه لا بدءاً أيام له ولا نهاية حياة ، بل هو مشبه بابن الله .
هذا يبقى كاهناً إلى الأبد . ثم انظروا ما أعظم هذا الذى أعطاه
إبراهيم رئيس الآباء ... »

فالتوراة والإنجيل معاً يصفان الكاهن السكنعانى بصفة
الرئاسة الدينية وصفة الخلود الذى لا يحده الزمان ، ويرفعانه
إلى المنزلة التى يتلقى منها إبراهيم بركة الإله العلى : إله السماوات
والأرض . ولا يكون ذلك لإنسان تعلم من إبراهيم ديناً لم يكن
يعرفه ، وإنما يكون لاستاذ متقدم فى العلم بدينه يتعلم منه إبراهيم .
وليس بين الأنبياء الذين دان لهم العبريون بعد إبراهيم من هو
أكبر مقاماً من موسى عليهما السلام ، ومن الناس من يقدم موسى
على من عداه من أنبيائهم بفضل الشريعة والقيادة الظاهرة إلى

أرض الميعاد ، وأنهم على مكاتته هذه ليثبتون عنه في سفر الخروج أنه تعلم من نبي « مدين » العربي الذي يدعونه يثرون وجوآب ، ويدعوه العرب باسم شعيب ... ولا التباس في أمر نسبه العربية بجميع الأسماء .

ففي الإصحاح الرابع من سفر الخروج أن موسى عليه السلام استأذنه في العودة إلى مصر قبل رسالته : « فضى موسى . ورجع يثرون حيه وقال له : أنا اذهب وأرجع إلى إخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء . فقال يثرون لموسى : اذهب بسلام . وفي الإصحاح الثاني عشر بعد رواية أخبار موسى من ذهابه إلى عودته : « أن يثرون أخذ محرقة وذبايح لله ، وجاء هارون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا طعاماً مع حمى موسى أمام الله » . ومعنى هذا أن شعيبا كان يقرب القرابين إلى الله ويتبعه موسى وهارون وجميع شيوخ إسرائيل .

ثم يستطرد الكتاب قائلاً : « وحدث في الغد أن موسى جلس ليقضى للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح إلى المساء . فلما رأى حو موسى كل ما هو صانع للشعب . قال : ما هذا الأمر الذى أنت صانع للشعب ؟ ما بالك جالسا وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح إلى المساء ؟ فقال موسى لحميه :

إن الشعب يأتي إلى ليسأل الله إذا كان لهم دعوى يأتون إلى ،
 فأقضى بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه . فقال
 حو موسى له : ليس جيدا هذا الأمر الذي أنت صانع . إنك تكل
 أنت وهذا الشعب الذي معك جميعا . لأن الأمر أعظم منك ،
 لا تستطيع أن تصنعه معك . الآن اسمع لصوتي فأنصحك ، فليكن
 الله معك . كن أنت للشعب أمام الله ، وقدم أنت الدعاوى إلى الله ،
 وعلمهم الفرائض والشرائع ، وعرفهم الطريق الذي يسلكونه ،
 والعمل الذي يعملونه ، وأنت تنظر من جميع الشعب ذوى
 قدرة خائفين الله أمناء مبغضين الرشوة ، وتقيمهم عليهم رؤساء
 ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات ،
 فيقضون للشعب كل حين ، ويكون أن كل الدعاوى الكبيرة
 يحيشون بها إليك ، وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها ،
 وتخفف عن نفسك ، فهم يحملون معك إن فعلت هذا الأمر
 وأوصاك الله تستطيع القيام ، وكل هذا الشعب أيضا يأتي
 إلى مكانه بسلام ، فسمع موسى لصوت حمية وفعل كل ما قال ،
 واختار موسى ذوى قدرة من جميع إسرائيل وجعلهم رؤساء
 على الشعب ، رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين
 ورؤساء عشرات ، فكانوا يقضون للشعب كل حين . . .

ومعنى هذا أن شعيبا تقدم موسى إلى عقيدته الإلهية ، وعلمه
تبليغ الشريعة وتنظيم القضاء في قومه ، وأن العبريين كانوا متعلين
من النبي العربي ولم يكونوا معلين .

* * *

ويأتى داود ، عند العبريين ، بعد إبراهيم وموسى في مقام
النبوّة ، وهو رأس البيت المالك الموعود بالملك الأبدي في هذا
العالم ، ورب الأسرة التي ينتظرون الخلاص على يدي ملك من
ملوكها يعود إلى ضهيون آخر الزمان . وقد كانت الصلة بينه
وبين البلاد العربية متجددة متبادلة كما يفهم من قصة ابنه سليمان
وصاحبة عرش سبأ في جنوب بلاد العالم ، ولكننا لا نملك من
الوثائق ما نستند إليه في تقدير آثار هذه الصلة من الناحية الدينية ،
ولنما نعلم من الوثائق التاريخية التي سجلها المؤرخون الآوريون
عن آثار اخناتون أن المشابهة قريبة جدا بين مزاميره وصلوات
ذلك الملك الذي تقدم بالدعوة إلى التوحيد في مصر القديمة . . .

« وقد عقد كل من هنرى برستيت وارثر ويجال Weigall
مقارنة بين بعض الصلات وبعض المزامير فاتفقت المعاني بينهما
اتفاقا لا ينسب إلى توارد الخواطر والمصادفات ، ومن أمثلتها
قول اخناتون :

« إذا ما هبطت في أفق الغرب اظلمت الأرض كأنها ماتت
فتخرج الأسود من عرائنها والثعابين من جحورها » .

ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه : « إنك تجعل ظلمة
فيصير ليل يدب فيه حيوان الوعر وتزجر الأشبال لتخطف
ولتلتمس من الله طعامها » .

ويمضى المزمور قائلا : « تشرق الشمس فتجتمع وفي ماويها
تربض . والإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله في المساء . ما أعظم
أعمالك يارب . كلها بحكمة صنعت . والأرض مملأة من غناك
وهذا البحر الكبير الواسع الأطراف . . . وهناك دبابات
بلا عدد صغار مع كبار . هناك تجري السفن ، ولويثان
— التمساح — خلقت له ليلعب فيه . . . » .

« ومثله في صلوات اخناتون : (ما أكثر خلائتك التي
نجيها أنت الإله الأحد الذي لا إله غيره . خلقت الأرض
بمشيئتك وتفردت فعمرت الكون بالإنسان والحيوان الكبار
والصغار . . . تسير السفن مع التيار وفي وجهه وكل طريق يتفتح
للسالك لأنك أشرفت في السماء ، ويرقص السمك في النهر أمامك
وينفذ ضياؤك إلى أغوار البحار ، وتضيء فزول الظلمة . . . وقد

أيقظتهم فيختسلون ويسعون ويرفعون أيديهم إليك ويمضى
سكان العالم يعملون .

وأيا كان مصدر هذه المزامير المتشابهة فالواقع المقرر أن
اخناتون سبق داود بأكثر من ثلاثة قرون ، وأن العبريين لم
ينشئوا هذا المذهب في الصلوات الدينية قبل شعوب العالم
في جوارهم ، ولا في غير ذلك الجوار .

* * *

على أن الجوار الملاصق لمساكن العبريين حيث تنقلوا بين
أرض آرام وأرض كنعان لا يشير إلى غير علاقة واحدة بينهم
وبين جيرانهم ، وهى علاقة التابعين بالسابقين عليهم فى الثقافة
الدينية على التخصيص وفى الثقافات الفكرية على الإجمال .

فمن قبل أيام موسى كان النبي العربى « أيوب » فى أرض تيماء
يدين بالتوحيد وينسك عبادة الكواكب والأوثان ويدعو
إلى المساواة بين الحر والعبد قائلاً متسائلاً : أليس صانعى فى البطن
صانعه وقد صورنا واحد فى الرحم ؟

والشراح ومؤرخو العهد القديم متفقون على سبقه إلى نزاهة
التوحيد وتفضيل كتابه فى هذا المعنى على كتب الأنبياء أصحاب
الأسفار فى العهد القديم . ومن هؤلاء الشراح إسرائيليون كالمستشرق

مرجليوت الذى يقول فى كتابه عن العلاقات بين العرب والإسرائيليين «إن أسلوب المتكلمين عن التوحيد فى هذا السفر أنزه من أسلوب الأنبياء الإسرائيليين الذين كانوا يضطربون فى بيئة وثنية ، خلافاً للمتكلمين فى سفر أيوب فإن البديل من الوحدةانية عندهم هو الإلحاد والجحود»

وبحقيق بعض المؤرخين زمان أيوب عليه السلام بمراصد الفلك بما ذكره فى أسماء النجوم والمنازل كالنعش والجبار والثريا ومخادع الجنوب وعين الثور وقلب العترب ، فيرجحون على رأى أشهرهم هالس Hales أنه وجد قبل الميلاد بثلاثمائة وألنى سنة . وقد أدخله جامعو التوراة فى العهد القديم لأنهم حسبوه قارة من كلام موسى وتارة من كلام سليمان ، وكان جامعو النسخة السريانية من التوراة يضعون كتابه بعد كتب موسى وقبل كتاب يشوع ، ولكنه أقدم من ذلك ولو لم نأخذ بتقدير الفلكيين ... لأنه لم يذكر شيئاً عن قصة الخروج من مصر وهى أهم القصص فى تاريخ العبريين ، فلا يسكت عنها من سمع بها فى برية بلاد العرب ، ولا بد أن يسمع بها من أقام هناك بعد خروج العبريين من مصر إن كان زمان أيوب بعد زمان موسى عليهما السلام .

* * *

وفي أيام موسى عليه السلام كان العبريون يحتكمون إلى نبي من العرب يقيم على نهر الفرات يسمونه بلعام ، ويظن بعضهم أنه مرادف لاسم لقمان . ويقول سفر العدد إنه حكم للعبريين على الموآبيين وأيد نبوءات يعقوب .

وما لم يذكره العبريون في كتبهم عن النبوءات في بلاد العرب أكثر مما ذكروه ، فإنما عناهم في سجلاتهم أن يذكروا التزكية والتأييد ، ولا يذهبوا مذهب الاستقصاء في تسجيل جميع النبوءات التي سمعوا بها . وقد يكون هنالك ما لم يسمعوا به ولم يكن مما يرتضونه لو أنهم سمعوه .

فليس سكوتهم عن هود وصالح وذى الكفلى الذين ذكرهم القرآن الكريم بحجة على خلو البلاد العربية من الأنبياء غير من ذكروه ، وما كانت قبائل عاد وثمود لتخلو من رسل الدين . وقد قام هؤلاء الرسل بالدعوة في مدين وتيماء قبل الدعوة الموسوية ، وإنما أعرض العبريون عن ذكرهم لأنهم جعلوا مصيرهم بعد قيام مملكتهم مرتباً بمصير بيت المقدس وسكتوا قصداً عن « الجنوب » بعد أن كانت قبلتهم كلها إليه .

فهم قد درجوا من أرض الجنوب في الجزيرة العربية ،

وظلوا بعد ذلك زهاء ألف سنة يلتفتون إلى مواطنهم الأولى
ويترقبون الحكمة منها .

فإبراهيم توجه إلى جيران ، وموسى توجه إلى مدين ، وكان
أرميا يهتف في مراثيه سائلا : ألا حكمة بعد في تيان ؟ هل بادت
المشورة من الفهماء ؟ . . . وتيان تقابل في لغتنا الحديثة كلمة
يمن بجميع معانيها .

بل بقيت عادة التوجه إلى الجنوب عند رسل القوم إلى ما بعد
قيام المسيحية . فكان بولس الرسول يقول في كتاب غلاطية إنه
ذهب إلى بلاد العرب قبل مسيره إلى دمشق .

أما تركيز القداسة في أورشليم فهو شيء جديد طارئ . بعد
أيام موسى بزمان طويل ، فبقيت أورشليم في أيدي اليهوديين
بعد موسى بقرون عدة ، ولم يطردهم منها أبناء بنيامين بعد نزولهم
بجوارها ، وبعد أيام داود جاء ملك من ذرية إبراهيم — يسمى
يهوئاش — فهدم سورها وأخذ ودائع الذهب والفضة من
خزائنها . وقال سفر الملوك عنه : إنه مات فاضطجع مع آبائه ،
أى مات مرضيا عنه في اصطلاحهم المؤلف .

لأنما تحول القوم باتجاههم من الجنوب إلى بيت المقدس بعد

ارتباط الهيكل بمصير بيت داود ، وتعليق أملهم في الخلاص
بعودة الملك إلى ذلك البيت في آخر الزمان .

وأما قبل ذلك فقد كانوا يستقبلون الجنوب ويلوذون به
ويتعجبون منه ، ولم يأخذ منهم الجنوب شيئاً من ثقافته الدينية
في أيام دولتهم ولا بعد أيامها . ولن تكون الدعوة المحمدية
التي ارتفعت من بلاد العرب قرعاً من هذا الأصل الذي لم يتأصل
قط في الوحداية . فإن الدعوة إلى عبادة رب العالمين دين لا يلتقي
بدين العصية المنعزلة في طريق واحد ، وإن نبوة الداعي الذي
لا يعرف من النبوة غير الهداية لطراز من النبوة لا يختلط بالتنجيم .



اللغة والكتابة

وفر العبريون من جنوب الجزيرة — على القول الراجح — إلى وادى النهرين ، ثم هاجروا من جنوبه إلى شماله ، وانحدروا — من ثم — إلى أرض كنعان ، وكانت لهم لهجة من لهجات اللغة السامية الكبرى قريبة من سائر هذه اللهجات التي كان يجرى الخطاب بها بين قبائل آرام وكنعان ، ويسهل التفاهم بها في مجملتها مع اختلاف يسير كاختلاف المتكلمين في القطر الواحد بين إقليم وإقليم .

ومن الواضح أنهم كانوا يبتعدون عن مصدرهم الأول في اللغة كلما ابتعدوا عن موطنهم القديم في الجنوب ، فأصبحوا بعد هجرتهم الطويلة يتداولون من الأسماء والأعلام ما لا يفهمون معناه ولا وجوه تصريفه ، وهو في لغة « سبأ » من جنوب الجزيرة مفهوم المعنى والمصدر الذي تصرف منه بلفظه واشتقاقه ، ويقول مرجليوت في كتابه المتقدم ذكره عن العلاقة بين العرب وبنى إسرائيل : « ومن المحقق أن هذه الكلمات لم تأت من فلسطين

إلى سبأ ، ولعلها قد جاءت من سبأ إلى فلسطين .
ولم تزل لهجة العبريين تنزل عن حولها كلما أمعنوا في
اعتزال الأمم بعبادتهم واعتقادهم التفرد بينها بنعمة الله ورجائه ،
بل باعتقادهم أن « يهوا » إنما يحقق لهم ذلك الرجاء بتدمير جيرانهم
وتمكينهم من رقابهم ، فلا سبيل إلى المشاركة باللغة مع هذا الحاجر
القائم بين الفريقين ، وأصعب ما يكون التفاهم باللغة حين
تستخدم هذه اللغة في العبادة والشعائر المقدسة حين تكون العبادة
والشعائر حكراً لمن يدينون بها ولا يقبلون من غيرهم أن
يشاركهم فيها .

وقد تحجرت اللغة العبرية في هذه العزلة واستطاعت مع هذا
التحجر أن تعيش في عصر المملكة وفي إبان الشوك والسيادة
برعاية الملوك والكهان ، ولكنها كانت تعيش في الهيكل وتوابعه
من « الكنيسات » التي يشرف عليها الأحرار المتعلبون المزودون
بالثقافة الدينية ، وكان أصحابها يتكلمون مع غيرهم خارج المعابد
فيضطرون إلى مخاطبتهم تارة باللهجات السامية الأخرى وتارة
باليونانية العامية ، وقد يتعلها بعضهم ويتعلم الكتابة بها على
خلاف هوى المتعصبين من الهيكليين والغلاة .

وكانت هذه العبرية حين تحجرت ووقفت عن التطور لهجة

ساذجة قليلة العدد ناقصة التصريف . ويقول فولتير في المعجم الفلسفي تحت كلمة آدم : « إنه من المحقق أن اليهود كتبوا قليلا جداً وقرأوا قليلا جداً وكانوا على جهل شديد بعلوم الفلسفة والهندسة والجغرافية والطبيعات فلم يعرفوا شيئاً من تواريخ الأمم ولم يأخذوا في التعلم إلا بعد اتصالهم بالإسكندرية حيث شرعوا في اقتباس المعرفة ، وكانت لغتهم البربرية مزيجاً من الفينيقية القديمة والسكلدانية المشوهة ، وبلغ من فقرها أنها لا تحتوى كثيراً من الأزمنة في أفعالها . »

ومن المسلمات المفهومة بين العارفين بالعبرية والعارفين بتاريخها أنها أخذت من اللهجات السامية ولم تعطها شيئاً جديداً من فنون التطور في قواعدها أو آدابها . فوقفت حيث بدأت وتركتها اللهجات السامية واقفة في مكانها وهي تتطور وتترقى إلى الشأو الذي بلغته في الأزمنة الحديثة ، ولم يكد عصر المملكة اليهودية أن ينقضى حتى كانت اللغة العبرية منقضية بين أهلها في الخطاب وفي الكتابة ما خلا الصلوات والعبادات ، ثم انهمزت بين جدران المعابد وعلى السنة الأنبياء والكهان ، وخلفتها اللغة الآرامية في معاملات الدين ومعاملات المعيشة اليومية ، ثم مضى العصر بعد العصر إلى زماننا هذا فأصبح قراء التوراة

بالعبرية أقل عدداً من قرائنها بأصغر اللغات .

ولا يعزى هذا إلى مجرد سقوط الدولة اليهودية ولا إلى نقص في عدد العبريين الذين يدينون بكتبهم المقدسة . فإن الدولة الآرامية في وادى النهرين سقطت وسقطت بعدها دول الآراميين المتفرقين بين أنحاء البادية ولم تزل لغتهم الآرامية تنتشر وتتغلب على نظائرها من اللهجات السامية واللهجات الأجنبية التي تسربت إلى مواطنها من سائر الأقطار . وإنما يعزى سقوط العبرية إلى عجزها عن الإنتاج ، الذى ينفع الناس ، فلم يكن عندها ما تعطيه ولم تكن وعاء صالحاً يستودعه خدام الفكر والمعرفة ما يعطون .

أما الكتابة فهى من أبرز المسائل التي تمتحن بها قدرة العبريين في تاريخهم القديم على الإنتاج والتصرف في شئون الفكر والثقافة ، وهى كذلك من أبرز المسائل التي تمتحن بها بواعثهم الفكرية التي تدعو الأمة المنتجة إلى اختراع الوسيلة للإفشاء بما عندها لسائر الأمم من رسالات الإنسانية وأماناتها .

أقام العبريون في مصر عدة قرون وأقاموا في سيناء عدة سنين . وفى مصر — كما هو معلوم — كانت نشأة الكتابة بالصور ، وفيها تطورت من الكتابة التصويرية إلى الكتابة المقطعية ،

ثم تطورت من الكتابة بالمقاطع إلى الكتابة بالحروف التي يستقل كل حرف منها بصوت يدل عليه في كل كلمة مكتوبة .

ولقد كان ينبغي أن يسبق العبريون غيرهم من القبائل السامية إلى اقتباس الكتابة على أنواعها ، سواء أكانت بالصور أم بالمقاطع والحروف ، بل كان ينبغي أن تكون ألواح الشريعة التي تلقوها في سيناء باعثاً لهم على استكشاف الألواح المكتوبة في مناجيها بما عليها من الخطوط والحروف .

ولكن الواقع الذي يسجله تاريخ الكتابة أنهم لم يبتدئوا قط عملاً من أعمال اقتباس الكتابة ولا من أعمال ترقيتها ونشرها ولا من أعمال التوفيق بينها وبين مخارج النطق في كلماتهم المفقوطة وإنما كانوا في كل مرحلة من هذه المراحل مستنفدين يأخذون بما سبقهم ويتحجرون عليه ، حتى تقسروهم على تغييره ضرورات المعاملة فيسرى التغيير قهراً — مع الزمن — إلى كتابة الشعائر والعبادات .

فالكلمات العبرية التي وجدت في رسائل أمراء فلسطين إلى فرعون مصر منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد كانت تكتب بالحرف المسماة كما حقق ذلك الأستاذ جمن Gimmun من أساتذة دار الفنون بليزيج (١) .

(١) كتاب الكنز في قواعد اللغة العبرية للدكتور محمد بدر .

ثم وجدت حروف عبرية تشبه الحروف التي وجدت على
ضريح ميشاع ملك موآب .

وظل العبريون يكتبون بهذا الحرف إلى أيام سبي بابل ،
فنقلوا الحروف المربعة عن الحروف البابية ، وزادوا عليها
حروف الحلق التي كانت شائعة على السنة الساميين بين بابل
وكنعان ، وكلها من مصدر عربي كما لا يخفى ، لاختصاص النطق
العربي بأكثر هذه الحروف .

وقد حفظ لنا المزمور التاسع عشر بعد المائة أسماء الحروف
التي احتوتها الأبجدية العبرية على عهد المملكة ، لأنه جرى على
طريقة التطريز في ابتداء كل مقطوعة بحرف من الحروف الأبجدية
وهي في هذا المزمور على ترتيب (أبجد هوز حطى ككن سغفص
قرشت) ... إثنان وعشرون حرفاً منها خمسة يتغير نطقها بإغفالها
من الإعجام أو بنقلها من اليمين إلى اليسار وهي الجيم والواو
والكاف والشين .

ومن آثار الاقتباس من النطق العربي أن حرف الغين لم يكن
موجوداً بين حروف المزمور ، فلما وجد بعد اختلاطهم بمن
ينطقون العربية أضافوه وسموه غيميل أى على وزن جيميل .
ويلاحظ أن (جيميل) بمعنى جمل عندهم . . أما غيميل فلا معنى

لها غير المحاكاة اللفظية ، وإنما قاسوها إلى أقرب المخارج فكتبوها
كما تكتب الجيم وحذفوا نقطة الإعجام للتمييز بينهما .
ولم يكن في نطقهم تمييز واضح بين الخاء والكاف ، فلما كثرت
التمييز بينهما على أسماءهم أيام تعلموا الكتابة جعلوا للخاء حرفاً
سموه الخاف على وزن الكاف ، وكتبوه كما تكتب الكاف بعد
حذف نقطة الإعجام .

ولما اتصلوا بأعاجم الشمال الذين ينطقون الواو « فاء » ،
كما يقول بعض الطورانيين « فلا الضالين » بدلاً من « ولا الضالين » ،
— نطقوها مثلهم وجعلوا لها حرفاً كالواو في رسمه بعد حذف
نقطة الأعجام .

كذلك أخذوا السين الآرامية المسماة بالآرامية سمنخ
حين كتبوا بهذه اللغة ، لورودها في كلمات كثيرة من
أسفار التوراة ، وهذا مع احتفاظهم بالسين ، (لاختلاف
النطق قليلاً بين اللهجتين في أحرف الذلق وأحرف الصفير .

وليس في العبرية ثاء ولا ذال ولا ضاد ولا ظاء ولكنهم
يقربون حروفهم منها بالتفخيم أو يكتبون بما يشابهها من
حروفهم فيحدث الالتباس أحياناً في نقلها إلى العربية . ويشتهر
الامر في البحث عن مصدر الكلمة من جراء هذا الالتباس ،

كما يحدث في كلمة الناصرة هل هي من النصر أو من النذر أو من النظر ؟ وكلها مميزة المعاني والخارج في العربية ملتبسة كما نرى في العبرية ، ويزيد الالتباس أن البلدة كانت قرية من موقع نصر وكانت مسكناً للكثيرين من المنذرين للعبادة ، وكانت مرقباً يسهل النظر منه إلى ما حواليه .

وقد نقحت الكتابة العبرية مرة أخرى حوالى عصر الميلاد على هدى الكتابة الآرامية ، فلم تنجع الحيل في إحياء هذه اللغة التي قضى عليها بالموت لعزلتها وفراغها من مادة البقاء التي تكفل الحياة للغات بما تؤديه للعالم من رسالة إنسانية أو عقيدة عامة ، ثم هدم الرومان هيكل بيت المقدس فتفرق الكهان في الأرض واتخذوا اليونانية لغة لهم في مصر وأوربة واعتمدوا على ترجمة التوراة لإيها أو إلى الآرامية للذين تخلفوا عن الهجرة في بلادهم ، وقد شاعت يومئذ تسمية الآرامية بالسريانية للتفرقة بين المتكلمين بها من المسيحيين ، والمتكلمين بها من أبنائها الذين لم يدخلوا في المسيحية ، ثم اندمجت السريانية المتطورة بعد ذلك في العربية القرشية على أثر ظهور الإسلام .

* * *

ولما كان القرن العاشر للميلاد أيقن أحبار إسرائيل ورؤساهم

بضياح العبرية وقلة صلاحها للبقاء بالتعليم والتلقين في نطاق المعابد المحدودة ، فإنها لم تكن صالحة على حالتها في ذلك العهد للتعليم لخلوها من القواعد والأصول التي تحفظ اللغة من جيل إلى جيل ... فرجع الأحبار إلى النحو العربي يقيسون عليه ويستعيرون منه : وكتبوا داجروميتهم ، الأولى باللغة العربية مقرونة في بعض الأحيان بالترجمة العبرية وكان أول من اجتهد منهم في تحرير كلماتها وجمعها سعيد بن يوسف الفيومي — أو سعديا — صاحب معجم الأجارون وكتاب الفصاحة (٨٩٢ م) . وتلاه الرباني ابن تميم البالي ، والرباني يهودا بن قريش والرباني مناحم ابن سروت الأندلسي ، والرباني سكوم بن جبيرول وغيرهم وغيرهم من تلاميذ العرب في المغرب ومصر والعراق .

* * *

وتتلذذ القوم على العرب في علم الكلام الإسرائيلي أو فلسفة اللاهوت ، فكان كل من فيلسوفهم ابن جبيرول (١٠٢١ — ١٠٥٨) الملقب بأفلاطون اليهود وابن عزرا الغرناطي (١٠٧٠ — ١١٣٨) صاحب الغزل الصوفي ، وابن ميمون أرسطو اليهود (١١٣٥ — ١٢٠٤) تلاميذ للدرسة الرشدية بالأندلس . وكان ابن ميمون يرى كما قال : إن وصايا الناصري ورجل إسماعيل

يعنى محمدا عليه السلام تهدي الإنسان إلى السكال . ولهذا ثار عليه المتعصبون من قومه وسموا كتابه دلالة الحائرين بضلالة الحائرين . وأول هؤلاء — ابن جبيرول — وضع منظومة في النحو العبرى على مثال النحو العربى فيما عدا قواعد الإعراب ، لأن الكلمات العبرية إما ساكنة أو مبنية ، لا تجرى فى تحريك أو آخرها على قواعد الآرامية ولا على قواعد العربية الحديثة . وأهم كتبه فى اللاهوت ، ينبوع الحياة ، منظور فيه إلى التصوف الإسلامى فى كثير من التفصيلات .

* * *

ولم ينبغ بين اليهود من الفلاسفة العالميين من هو أشهر من باروخ سنبوزا (١٦٣٢—١٦٧٧) الذى نشأت أسرته فى البلاد الألمانية ، وتوفر فى صباه على دراسة كل من ابن ميمون وابن عزرا ، ثم خلفه المشتغلون بالفلسفة من اليهود بعد ظهور الفلاسفة الكبار من الألمان ، فكان القوم كعادتهم مستفيدين فى هذا الفرع الواسع من فروع الثقافة الإنسانية كشأنهم فى كل ثقافة تلقوها . بين الأقدمين والمحدثين .

وكانوا حيثما اشتبكوا مع العرب فى ناحية من نواحي المعرفة والعقيدة تابعين مسبقين ولم يكونوا قط سابقين لهم أو مرشدين .

الشعر

إذا كان في نشأة الشعر العربي من الحداء بعض الشك ،
فليس هنالك أقل شك في الصلة الوثيقة بين الحداء

والشعر في تطور تركيبه وتوفيق أوزانه وتقسيم أعاريضه . لأن
أوزان الشعر التي نظم فيها شعراء الجاهلية تنظم فيها الأعاريض
جميعا مع حركة من حركات الإبل في السرعة والأناة . فلا خفاء
بهذه الحركة السريعة في هذا البيت :

أنا أنبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ولا خفاء بالحركة المتمهلة في هذا البيت :

ما للجمال مشيها وييدا أجند لا يحملن أم حديدا
ولا خفاء بحركة الإبل على اختلافها وما يناسبها من أوزان

الحداء في كل بيت ينتظم من أمثال هذه التفاعيل .

والحداء نفسه مناسبة شعرية تستوحى الغناء في ليالي البادية
القمراء ، بين الحنين إلى الوطن الذي يارحه الركب ، والأمل في
المنتجع الذي يتمنق إليه ، وليس لترديد الغناء — بمعانيه الشعرية
بجمال أقرب إلى الحياة البدوية وألصق بها من مجال الحداء .

قللا نزاع في الصلة الوثيقة بين الحداة ووزن الشعر العربي ،
فإن لم يكن كل ما نظمته العرب حداة يتغنى به الحداة فعلا فهو
وزن لا يخالفه ولا ينفصل عن نغائته وأعاريضه .

والمرجح إلى جانب هذا أن حداة الإبل كان له عمله المحسوس
في التزام القافية ، سواء بدأت القافية في سجع الكهان كما يرى
الكثيرون ، أو كان ابتداءها في غناء الحداة .

فالمشاهد من أشعار الأمم في لغات متعددة أن القافية تلزم
في الشعر المنفرد ، أي الشعر الذي يتغنى به ناظمه وراويّه ، ويعصى
إليه المستمعون دون أن يشتركوا في الغناء ، ويلاحظ هذا في
أغاني المنشدين الحاسيين أو المتغزلين التي يسمونها Ballads
(بلاد) في بعض اللغات الأوروبية ، كما يلاحظ في الموشحة
Sonnet التي يتغنى بها العاشق لمعشوقته في البلاد اللاتينية حيث
كان منشؤها الأول ، وقيل إنهم استعاروها من الموشحة العربية .
وتهمل القافية غالبا في أناشيد الجماعات سواء كانت مسرحية
أو دينية كما يرى في أناشيد اليونان والعبريين ، وسر ذلك ظاهر
لمن يريد أن يختبره في حالة الإصغاء ، أو حالة الاشتراك في الغناء .
فإن السامع المصنئ إلى ترتيل غيره يحتاج إلى تنبيه السمع
واتتظار مواضع الوقوف والترديد ، فيعرفها من القافية المتتابة
في مواضعها .

أما المنشد المشترك في الغناء فهو يعلم مواضع الإيقاع ومواضع
الابتداء وال انتهاء ، فيغنيه الاشتراك في الإيقاع عن انتظار
مواضع الوقوف ، وعن تنبيه غيره له بالقافية إلى تلك المواضع ،
وقد نقبين هذا الفارق فيما نشده بأنفسنا ولو كان من الكلام
المشور ، فإننا نتبع الوزن في هذه الحالة ولا يعني أن تترقب
القافية ، بل لا يعني أن تترقب شيئا غير الاسترسال في النغم
إلى نهاية الكلام كيفما كان انتهاء مقفى أو غير قافية ، شأنه في ذلك
شأن اللحن الموسيقى الذى خلا من الكلمات ، فلا يلتفت فيه إلى
غير امتداد النغمة حسب أوزان الإيقاع .

وكثيرا ما خطر لنقاد الغرب أن هذه القوافى والبحور في
وزن الشعر خاصة من خواص الأمزجة السامية خالف الساميون بها
الأوربيين لمخالفتهم إياهم في تكوين الفطرة وخصائص العناصر
البشرية .

لكنهم فهموا بعد تواتر البحث في أشعار اللغات السامية
أن القافية غير ملازمة في جميع تلك اللغات ، وأن كثيرا من
الشعر المنظوم فيها خال من البحور والأعاريض ذات التفعيلات
المتكررة ، كأنه فواصل النثر التى تنقسم إلى جمل متقاربة ولا تنقسم

إلى شطور متساوية في حركات الأسباب والأوتاد على اصطلاح
العروضيين .

فلا بد إذن من البحث عن سبب غير الأمزجة العنصرية ،
ولا بد أن يكون اختلاف الإنشاد هو سبب هذا الاختلاف
بين العرب وسائر الشعوب السامية . فإن شعوب وادي النهرين
ألقت أناشيد الكهان في الهياكل فترخصت في القافية كما ترخصت
فيها الشعوب الآرية التي يتغنّى فيها الناس مجتمعين ، وقد ألّف
العبريون العبادة معاً منذ كانوا قبيلة واحدة تنقل بجذافيرها ،
وتبتهل بجذافيرها إلى معبودها في حظيرة واحدة . ولم تألف قبائل
البادية العربية نوعاً من أنواع الأناشيد المجتمعة ، فغلبت على
شعرها أوزان القصيد المفرد وقوافيه .

ويرى بعض علماء اللغات السامية أن الكلمة التي تفيد معنى
الشعر فيها واحدة مأخوذة من أصلها العربي مع قليل من التحريف
طراً عليها بعد انتشار الساميين في وادي النهرين وبادية الشام
وأرض كنعان . ويقول العالم القس الأب مرميجي في كتابه
المعجميات : « إن لفظة الشعر كانت تدل قديماً على الغناء وإن لم
ترد بهذا المفهوم في المعاجم التي بين أيدينا . ويمكن الاستدلال
على ذلك بوسيلة المقارنة الألسنية السامية . إذ أننا نجد في أقدم

اللغات السامية من حيث الآثار المكتوبة ، أى اللغة الأكديّة
كلبة (شير) الدالة على هتاف الكهان فى الهياكل ، ومن
الأكديّة انتقلت اللفظة إلى العبريّة بصورة (شير ، وشيره) ومعناها
النشيد ، ومنها صيغ الفعل المرتجل (شير) بمعنى أنشد وغنى ،
ثم إلى الآرامية بصورة (شور) بمعنى أنشد ، ونم ، غنى . ومن
ذلك جاء اسم سفر من أسفار العهد القديم وهو (شير هشيريم)
أى نشيد الأناشيد ، وقد ورد الفعل العبرى (شير) فى أقدم
أثر للغة العبريّة وهو نشيد النبية دبورت ، يليه مرادفه (زامر)
وكلاهما بصيغة الحاضر (اشيره) أى أنشد وأزمر . والجدير
بالملاحظة كما أشار إلى ذلك لانجدون Langdon أن العبارة
الأكديّة (زامار شيرى) تطابق كل المطابقة العبارة العبريّة
(مزمور شير) ومفرداهما فى العبريّة (مزمور ، نشيد ، أو شعر) .
هذا ومعلوم أن أغلب الأحرف الحلقية ، ومنها العين ، قد سقطت
فى الأكديّة ، أو أنها كانت تلفظ دون أن تمثلها علامة فى الكتابة ،
لأن الرسم المسمارى المستعار للأكديّة السامية من الشمرية غير
السامية — كان خاليا من العلامات للحلقيات ، لخلو الشمرية منها ،
ولهذا جاز لنا افتراض أن كلمة (شير) كان أصلها أولفظها (شعرو)
إلا أنها ولجت العبريّة والآرامية وهى خلو من العين كما كانت

مصورة في الرسم المسماري . أما العبرية فقد ظهرت أو بقيت فيها العين الأصلية ... على أن العربية والعبرية قد احتفظتا بالكسرة المحركة بها الشين في الأكديّة (شيرو) فجاء في العبرية (شير) وفي العربية (شعر) والكلمة (شيرو) مشتقة حسب معناها في الأكديّة والعبرية أى معنى الهتاف ثم الغناء . . .

* * *

ولا غرابة في أن تكون كلمة (الشعر) في لغة الجزيرة سابقة لمرادفاتها في وادى النهرين وأرض كنعان ، لأن الجزيرة كانت مصدر الحجرات المتوالية إلى تلك المواطن كما تواتر في أشهر الأقوال .

على أن المعلوم لنا الآن من أطوار الشعر في اللغات السامية أنه تحول في الآرامية والعبرية من الفقرات المسجوعة على نحو أسجاع السكمان إلى السطور المتوازية على نسق قابل للترنم والإنشاد ، ثم توقف به التطور عند هذه المحاولة لارتباطه بالشعائر الدينية . وهذا بينما تطور النظم في بلاد الجزيرة العربية حتى أصبح (فنا) يميزا بأوزانه وأقسامه التي تعرف بأسمائها دون أن تنسب إلى ناظم معلوم ، على حين أن القصائد العبرية لا تعرف باسم في يدل عليها ، وإنما تعرف بأنها قصيدة كالتى نظمها

هذا الشاعر أو ذاك من شعرائهم المشهورين ، وتميز بعلامات خاصة ولا تميز على قاعدة عامة تغنى عن الإشارة إلى ناظمها .

وبعض اللهجات السامية توقفت عند السطور المتوازية ، ولم تتطور بها إلى تقسيم الأوزان والتفاعيل الواضحة . فكان كثير من شعرها يخلو من التفاعيل والقوافي اعتمادا على مضاهاة السطر بالسطر والترنيم بالترنيم .

يقول الأستاذ جلبرت مورى فى بحثه عن الأوزان والأعاريض : « إن إحدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية فى اللغات الحديثة . فى اللغتين اليونانية واللاتينية ينظمون بغير قافية لأن الأوزان فىهما واضحة ، وإنما تدعو الحاجة إلى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الأذن بعلامة ثابتة للوقوف ، وبغير هذه العلامة تثقل الأوزان وتغمض ، ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والانفصال ، بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام منشور ، وقد اختلف الطابعون هذا الاختلاف فى بعض المناظر المرسلة من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من المنشور وحسبها الآخرون من المنظوم . وبما يلاحظ أن اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه إلى النسبة العددية ... وأن الصينيين يحرصون على القافية لأنهم لا يلتزمون

الأوزان . وأن انتشار القافية في أغاني الريف الإنجليزية يقترن بالترخص في التزام الأعاريض .

ويستطرد العلامة الناقد الأديب إلى الشعر الفرنسي فيقول :
« إن اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن إلى مجرد إحصاء المقاطع وأصبحت المقاطع بين مطولة وصامتة نشأت فيها من أجل ذلك حاجة ماسة إلى القافية فصارت في شعرها ضرورة لا يحصى عنها ، ودعا الأمر إلى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه . »

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية في أشعار الغربيين ذلك السبب الذي ذكرناه آنفا ولم يذكره العلامة جلبرت مورى : وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ الذى يحفظه المغنون جميعا بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والتديد في كلماته وفقراته . فإنهم في هذه الحالة ينساقون مع الإيقاع بغير حاجة إلى القوافى عند نهاية السطور ، ولهذا نرى أن شعراء هذه اللغات بعينها يلتزمون القافية في أناشيد الأفراد ويكثر من القافية في المقطوعات التى يرتلها المنشدون المعروفون باسم الـ Bards أو اسم (Minstrals) وكلهم يرتلون أو يترنمون بما ينشدون ... فلا شعر في لغة من اللغات بغير إيقاع ، وقد يجتمع كله من وزن

وقافية وترتيل في القصيدة الواحدة ، ولكنه اجتماع نادر في لغات العالم ميسور في لغة واحدة على أكمل الوجوه لامتيازها بالخصائص الشعرية الوافرة في ألفاظها وتراكيبها وهي اللغة العربية .

فالكلمات نفسها موزونة في اللغة العربية ، والمشتقات كلها تجري على صيغ محدودة بالأوزان المرسومة كأنها قوالب البناء المعدة لكل تركيب ، وأفعال اللغة مقسومة إلى أوزان مميزة في الماضي والمضارع والأمر ، وفي الأسماء والصفات التي تشتق منها على حسب تلك الأوزان ، ولا نظير لهذا التركيب الموسيقي في لغة من اللغات الهندية الجرمانية ولا في كثير من اللغات السامية . فالذي يميز اسم الفاعل وزن متفق عليه في الأفعال الثلاثية والأفعال الرباعية أو الخماسية ، ولكنه في اللغات الأوربية يأتي بإضافة حروف لا يعرف لها وزن مقرر قبل الإضافة ولا بعدها .

ويجب أن لا تتعجل فنحسب أن هذا الفرق في الخصائص الموسيقية يرجع إلى الاختلاف بين الأمم الآرية والأمم السامية كما توهم بعض المستشرقين وبعض المتعجلين من كتابنا الشرقيين . فاللغة العبرانية كما أسلفنا لغة سامية في أصولها ولكنها على

ما رأينا بخالية من الوزن والقافية ، وتستعويض منها بالأسطر المتوازية والكلمات المترددة بين السطر الأول وما يليه . وقد كان العبريون يجهلون فنون العروض عندهم حتى انكشفت للباحثين اللاهوتيين بعد ترجمة التوراة والإنجيل واطلاع علماء اللاهوت على أصول اللغات التي كتبت بها أسفار العهدين القديم والحديث ، فانكشف للأسقف لوث Lowth في القرن الثاني عشر أن أشعار الكتابين لا تجرى على وزن محدود وأن قوام الشعر عند العبرانيين سطر يرددونه لأغراض ستة ، وهي : المجاز والاستطراد والتفسير والمبالغة والمقابلة والمقارنة .

ومن أمثلة التردد لمقابلة المعنى الحقيقي بالمعنى المجازي قول المزامير : (من السيف أُنقذ نفسي ، ومن يد الكلب أُنقذ وحيدتي) .

ومن أمثلة التردد للاستطراد قول أيوب : (هناك يكف المنافقون عن الفتنة ، وهناك يكف المتعبون فيستريحون) ..
ومن أمثلة التردد للتفسير قول المزامير : (من هو الإنسان الخائف من ربه ؟ هو الإنسان الذي يهديه الرب إلى طريق يرتضيه) .

وهكذا سائر الأمثلة في الأسطر المتوازية وإن زادت على

سطرين ، وقد تزيد بعدد الحروف الأبجدية على طريقة التطريز
في اللغة العربية كما يلاحظ في وزن المزمور التاسع عشر بعد المائة
فإنه يتألف من اثنين وعشرين حرفاً — عدد أحرف الأبجدية —
كل حرف منها يقترن بسطر من المزمور .

وعلى هذه القاعدة بنى النظم في العبارات الموقعة التي تردت
في العهد الجديد ، وقد أتينا بأمثلة منها في كتابنا (عبقرية
المسيح) نكتفي منها بهذا المثل من وصايا السيد المسيح :
د اسألوا تعطوا .

د اطلبوا تجدوا .

د اقرعوا يفتح لكم .

د لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح
له الباب .

د من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه خبزاً ؟

د ومن منكم يسأله سمكة فيعطيه حية ؟

د أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً ؟

د فإذا كنتم وأتم أشرار تحسنون العطاء للابناء فكيف
بالآب الذي في السماء ؟

* * *

فألخواص الشعرية التي امتازت بها لغتنا العربية ليست من خواص اللغات السامية ، وليس لها نظير في العبرية ولا في الكلدانية ولا في معظم اللهجات التي تفرعت على أصول الكلام عند الساميين ، ولكنها خواص ممتازة تنفرد بها هذه اللغة لأسباب كثيرة لا داعية لإحصائها في هذا المقام ، ولا نحب أن نعرض منها للأمور التي يطول فيها الجدل وتضطرب فيها منازع الآراء والأهواء . إذ كان امتياز الحروف العربية بالدلالة على الحساسية الموسيقية حقيقة ملموسة لا محل فيها للمحال ، فالأذن العربية تميز بين الظاء والضاد ، وبين الذال والداد ، وبين الحاء والخاء والهاء ، وبين الصاد والسين والشين ، وبين الجيم والغين والعين ، وبين القاف والكاف والحاء ، وقلبا يميز الناطقون باللغات الأخرى بين هذه الحروف ، وإذا وجدت في تلك اللغات حروف لا تنطق بالعربية كالفاء والباء الثقيلتين فهما في الواقع حرف يصدر من مخرج واحد بين التخفيف والتثقيل ، وليست ذات قيمة موسيقية مستقلة كالحروف التي ذكرناها في اللغة العربية .

ومن العلامات الموسيقية المركبة في بنية الكلمة أننا نميز بين الحركة وحرف العلة على خلاف اللغات غير السامية ، فعندنا الواو والضمة وعندنا الياء والكسرة ، وعندنا الألف والفتحة ،

وعندنا السكون لوما يشبهه من التنوين . . وأدل من ذلك على
الموسيقية الطبيعية بناء المشتقات على الأوزان واختلاف معنى
الكلمة باختلاف الصيغة التي تبنى عليها .

ويمائل هذا من الدلائل البدائية التي تحسب من حروف
الابجدية في علم الموسيقى أن الغربيين يسقطون (الكوما) من
الاصوات المحسوسة ، وأن الموسيقى الشرقية تحسب الصوت الذي
يسمع من ربع (الكوما) وهو همزة تأتى من نصف مليمتر
في الوتر الذي يبلغ طوله متراً كاملاً ، وتسمى لهذا في اصطلاحهم
بالذرة الموسيقية .

* * *

ونستخلص مما تقدم أن فن الصياغة الشعرية سلك في تطوره
ثلاثة مسالك متفاوتة في أمم شرقية وغربية لا تنتمى إلى سلالة
واحدة وبينها من الاختلاف كما بين الصين وأوربة الحديثة ،
أو كما بين الشعوب السامية واليونان في العصور الغابرة .

ففي بعض الأمم يتوقف هذا الفن عند السجع الذي يتردد
في الفقرات القصيرة كسجع الكهان ، فإذا طالت القصيدة روى
فيها تنسيق الأسطر المتوازية يترنم بها الجماعة في أناشيد العبادة
أو التمثيل ولا تراعى فيها القافية .

وفي أمم أخرى تراعى القافية ولا يراعى الوزن إلا بالمقدار

الذى يسمح بمساواة الغناء والترتيل. ويلاحظ أن شعوب الصين التي غلب عليها هذا التطور وظهرت القافية في صياغة شعرها قد عرفت الجمل والخيمة ولا يزال مسكنها المعروف « بالاجودا » مبنياً على أشكال الخيم البدوية وأوضاعها .

وفي الأمة العربية وحدها تم التطور فانتظم الوزن بتفعيلاته وأسبابه وأوتاره وروعيت فيه القافية ، وقامت صياغة الشعر فناً خالصاً مستقلاً عن الغناء ، يعرف بأسماء بحوره وقواعده أوزانه ولا يلحق بشخص هذا الناظم أو ذاك في تعريف أساليبه وتمييز أقسامه .

ولا يعزى هذا الفارق النادر إلى الحداثة وحده أو إلى انفراد الحادى بالغناء ، بل يعزى إليهما معاً مقترنين بتلك الحساسة السمعية التي تفرق بين مخارج الحروف ودقائق النغم، وهي مشتركة غير مميزة في لغات كثيرة .

ولسنا هنا بصدد البحث في موضوعات الشعر ولا في مذاهب الشعراء ، فإنه معرض من البحث لا سبيل فيه إلى ترتيب السابق والمسبوق ، وإنما يعيننا سبق المحقق بشواهد الحس والواقع وهو السابق إلى فن الصياغة الشعرية ، فلا نزاع هنا في تطور هذا الفن بين عرب الجزيرة قبل تطوره بين العبريين من القبائل السامية ، وبين اليونان من الشعوب الهندية الجرمانية .

... ونهاية المطاف

في نهاية المطاف قد اتضح لنا المقصد الذي توخيناه **رطلنا** وأجلنا بيانه في كلمة التمهيد لهذه الرسالة . فهو

تصحيح الأوهام الشائعة بين الغربيين عن تخلف الأمة العربية في ميادين الثقافة والحكم عليها أبدأ ، وفي جميع الأحوال ، بأنها تبع مسبق يقتدى باليونان في ثقافة الفكر، وبالعبريين في ثقافة العقيدة ، وليس للأمة العربية سابقة من سوابق الفضل يدين لها أولئك اليونان وأولئك العبريون .

وقد لج الأوربيون في هذه الدعوى لاجحة بغیضة تتكشف عن سوء نية ، ويبدو عليها كأنها تتعسف في البحث عن أسباب التجنى والإنكار فتخلقها خلقاً وتحيد عن الطريق السوي جيداً ، لكي تلتهم من ذلك إلى قدح في الطليعة العربية وتمجيد لطبيعة من طبائع الأمم سواها ، حيثما تكون .

فقد يترخصون أحياناً في نسبة الفضل القوي أو العنصري إلى سلالة هندية ، لأن الأوربيين يدخلون في الجامعة الهندية الجرمانية ، إذا دعت الضرورة .

وقد يترخصون في نسبة الفضل القومى أو العنصرى إلى سلالة صفراء أو طورانية، لأنهم قد يعادونها اليوم ولكنهم لم يرثوا من أجدادهم عداوة لها من عصيات القرون الوسطى .

وقد يترخصون في نسبة الفضل القومى أو العنصرى إلى العبريين ولو كان المترخصون ممن يعادى اليهود في المناقشات الاقتصادية أو العملية ، لأنهم لا يعدمون بينهم وبين هؤلاء اليهود صلة قديمة حين كانوا يوماً من الأيام شعب التوراة ١ .

أما الأمة العربية فلا رخصة معها من هذه الرخص التي يصطنعها أعداؤها المتعصبون عليها ، بل تحتفى كلها ويحل محلها عداوة الميراث التاريخى، وعداء الاستعمار، وعداء الجهل، وعداء الانانية التي تغرى الجماعات أحياناً بالتحزب والاثرة كما تغرى الآحاد من الناس . فليس أيسر من تصديقهم لكل فرية تفرى عليها ، وليس أسرع من إنكارهم لكل محمدة أو سابقة من سوابق الفضل تنسب إليها .

هذه اللجاجة البغيضة هي التي نريد أن نقضى عليها ونقضى على آثارها في أذهان المتأثرين بها من صرعى المذاهب الأجنبية بينما نحن الشرقيين ، وهم — للأسف الشديد — غير قليين .

ولكننا لا نريد أن تقضى عليها ونضع في مكان الخطأ المنكر
خطأ آخر من قبيله .

لا نريد أن نمحو فضلا لصاحب فضل ، ولا أن نبخس حقاً
لصاحب حق ، ولا أن نبطل احتكار المزايا الإنسانية على أناس
لكي ننقل هذا الاحتكار إلى أناس آخرين .

كل ما نريده أن ندفع شبهات القصور الأبدى المفترى على
أمة عريقة حية ، كان لها فضلها العميم على الإنسانية ، ويرجى
أن يكون لها فضل مثله أو يفوقه على أجيالها المقبلة ، وهي في
مقامها الأوسط بين القارات ، وبين العقائد والثقافات .

ولقد كان نصيب الأمة العربية من تلك الشبهات « نصيب
الأسد » إن صح هذا التعبير ، فأصابها منها أكبر نصيب تصاب
به الأمم ، منذ أيام الشعوية إلى أيام الاستعمار والتبشير
والآرية والشيوعية ! .

كان يقال عن العرب إنهم بعثوا بالدين ولم يبعثوا بالدنيا .

وكان يقال « إنه لا يفلح عربي إلا ومعه نبي » .

وكان يقال إنهم لا يصلحون في دولتهم وفي غير دولتهم
إلا محكومين .

وقالوا إن العرب لا يحسنون صناعة الحكم ولولا ذلك
لما خرجوا من الأندلس بعد الغلبة عليها عدة قرون .
وقالوا إنهم لا يحسنون فنون الحضارة ولولا ذلك لكان
لهم فن جميل غير نظم القصيد .

وقالوا إنهم لا يحسنون من أعمال المعاش غير ما تعودوه
في البادية من رعى الإبل والماشية ، ولولا ذلك لما غلبهم طراق
بلادهم من الغرباء على أسباب المعيشة .

وكل أولئك الدعاوى الكبار أضعف من أن يثبت على النظر
المتأمل لحظات ، فضلا عن الثبات في مجرى التاريخ .

فمن هم أصحاب الدولة الذين داموا في مستعمراتهم أطول من
دوام العرب ؟ أو تركوا بعدهم أثرا أبقى على الزمن من آثارهم ؟
أم الرومان سادة الاستعمار القديم ؟ أم هم البريطان سادة
الاستعمار الحديث ؟

إن الرومان خرجوا من كل وطن دخلوه ، ولم يستطيعوا
أن ينشروا ديانتهم في أمة حكموها ، بل كانوا هم الذين انتقادوا
آخر الأمر لديانة المحكومين .

أما الإنجليز فقد خرجوا من الولايات الأمريكية بعد أن
سكنها منهم معظم المهاجرين إليها ، وقد خرجوا من الهند بعد

أن استقروا في كل بقعة من بقاعها أكثر من قرنين ، ولم يمكث
سادة الاستعمار القديم ولا سادة الاستعمار الحديث في مستعمراتهم
كما مكث العرب في الأندلس .

والإنجليز ما تركوا من آثار الحضارة والثقافة أثرا يقارب
الأثر الذي أبقاه العرب في الأندلس وفي القارة الأوربية على
الإجمال ، ومنه أثرهم في عصر النهضة وعصر الإصلاح .

وقصور الجراء والزهراء وما يماثلهما من القصور التي قامت
في الشرق على نماذج الفن البيزنطي جواب مائل للبيان لمن ينكر
على الذوق العربي فنا جميلا غير فن القصيد . فكل هذه القصور
مميزة بذوقها العربي على القلاع القوطية والأواوين الفارسية
والعائر الرومانية أو اليونانية ، منذ نشأتها الأولى إلى قيام
الدعوة الإسلامية .

وطابع الذوق العربي هو طابع النخلة العربية بقامتها الهيفاء ،
وفروعها التي تتلاقى في عقود المربعات كما تتلاقى الأركان والأعمدة
في هندسة البناء ، حيثما طبعته بطابعها على الرغم من قيام البنائين
أو المهندسين عليها من أبناء الأمم الأخرى .

وليس أبعد من البعد بين البحر والصحراء ، ولكن العرب
ركبوا البحر فقبضوا بأيديهم على زمام الملاحة بين الهند وفارس

وسواحل أفريقية الشرقية ، فسمى البحر كله باسم بحر العرب ،
وسمى الشاطئ الشرقى من سواحل أفريقية باسم السواحل حيث
يتكلم الإفريقيون الآن باللغة السواحلية كما يسميها الأوربيون .
والتجارة من أسباب المعيشة ، فمن الذى بلغ بها ما بلغه العرب
فى الهند وأندونيسية وأفريقية الوسطى ؟

لأنها بلغت على أيديهم أن تكون فتحة فى عالم الروح ، ولم
تكن فتحة فى عالم المال وكفى ، إذ أصبح فى تلك البقاع قرابة
مائتين من الملايين من المسلمين لم يعرفوا دينهم من غير أولئك
التجار الناجحين .

هذه الوقائع تصحيح بين لدعوى العصبيات الجنسية يرشد
العقل البشرى إلى الصواب فى مسألة من أخطر المسائل العالمية ،
ذات الأثر المتشعب إلى كل زاوية من زوايا العالم ، وكل علاقة
من علاقات بنى الإنسان

نعم . هى تصحيح للعقل البشرى يأتى فى أوانه وليس قصارى
الأمر فيها أنها دفاع عن العرب أو تبرئة لهم من أقاويل دعاة
العصبيّة المستعمرين والشعوبيين والمرددين لأصداغ الغابر المهجور .
والرأى الجلى فى هذه الدعاوى العصبية إذن أنها من قبيل
الإشاعات التى تروجها المصالح إلى حين ، ولكن هل هى

إشاعات تبتدىء وتنتهى حول النزاع على المصالح ومفاخر
الأنساب ؟ وهل نفهم من بطلان الدعاوى العنصرية أن عناصر
السلالات تتساوى فى ملكات العقول ومزايا الأخلاق ؟

إن من يقول بذلك ينقض الواقع الشاهد فى الحاضر كما ينقض
الواقع الذى حفظته التواريخ ، فلا نكران لاختلاف الأمم
فى التفكير والسلوك ، وإنما ينكر الباحث المنصف أن يعزى
هذا الاختلاف إلى أسباب أصيلة تنفرد بها عنصر من عناصر
البشر دون سائرهما ، وينصف الأجناس جميعاً حين يعزو بكل
مزية إلى أسبابها الطبيعية التى تتأثر بها كل أمة تعرضت لمؤثراتها ،
ولا يقصر مزية من المزايا على قوم يحتكرونها فى جميع الأحوال .

والمثلان البارزان . اللذان يذكران فى معرض التمييز بين
الخصائص الجنسية كفيلان يبرز هذه الحقيقة فى نصابها الذى
يستقر عليه البحث عن مزايا العقول والأخلاق بين جميع الشعوب .

هذان المثلان هما مثل اليونان واليهود : أولهما يضربونه بطلب
العلم ، وثانيهما يضربونه بطلب المال .

فعندهم أن اليونان قد امتازوا بحب المعرفة حبا للمعرفة .
لأنهم نموذج العقل الأوربي المطبوع على الفهم وحب الاستطلاع .

وأن اليهود قد امتازوا بالمهارة الاقتصادية فلا يضارهم فيها شعب من شعوب العالم منذ عهد بعيد .

والواقع أن شعوب العالم العريقة قد طلبت المعرفة كما طلبها اليونان ، ولكن الشعوب التي عاشت في أودية الأنهار الكبار — كما تقدم — قامت فيها الكهانة القوية إلى جانب الدولة القوية فتحوّلت المعرفة إلى الكهانة ، وأحاط بمعارفها ما لا بد أن يحيط بها من أسرار الكهانة وقيود التقاليد ، وهكذا حدث في القارة الأوربية نفسها يوم قامت فيها السلطة الدينية القوية ، وحجرت على المفكرين أن يتعرضوا لمباحث المعرفة في أصول الأشياء وحقائق الوجود .

والواقع أن اليهود لا يفوقون غيرهم في القدرة على تحصيل المال ، وقد تسابقوا بميدان واحد في وادى النيل مع الأرمن واليونان والجالليات الشرقية فلم يسبقوها في تحصيل الثروة ، ولا في تنويع مواردها ، ولعلمهم لولا تضامنهم في بلاد العالم التي ينتشرون فيها يرجعون إلى ما وراء الصفوف الأولى في المهارة الاقتصادية وفي تدبير المال على الإجمال .

فلا احتكار لمزية قومية بغير سبب ولا فرق بين الأمم لذا تشابهت الأسباب .

وأمة العرب بين هذه الأمم لم تقصر ولن تقصر عن أمة
سابقة في مضارها حيث تنبأ لها أسباب العلم وتمهد لها السبل
إلى الغاية ، ولن تقف هذه الغاية دون أمد من الآماد .

* * *

وإذا كان من حقنا نحن الشرقيين جميعا أن نؤمن بهذه الفكرة
الصالحة ، فن واجبنا أن نحترس من مغبة الاغترار بها ومن
سوء الفهم الذى يخشى أن تسوقنا إليه .

فن سوء فهمها أن نفهم أننا مبرأون من العيوب معصومون
من الخطأ ، أو نفهم أن عيوبنا هيئة لا تكلفنا المشقة فى إصلاحها ،
وأن أخطاءنا قليلة لا تعاودنا فى كل آونة من حياتنا مع أنفسنا
أو حياتنا مع أقوامنا .

كلا بل لنا عيوب غير هيئة ، ولنا أخطاء غير قليلة ، غاية
ما يعزينا فيها أن نؤمن بأننا قادرون على تصحيحها وعلى اجتنابها ،
وأنها ليست بالأيدية التى لا تفارقنا كما زعم المفترون عليها .

أما تلك العيوب التى تفتري علينا فهمى التى تفرض علينا
القصور كرهين وطائعين كما يزعمون ، وهى التى نعرفها أو نجعلها
على حد سواء ، لأن الحيلة فيها عبث ، والأمل فى الخلاص منها
مفقود .

تلك العيوب تنكرها ونشتد في إنكارها ، وليس قصاراتنا
في تبرئة أنفسنا منها أننا نحب أنفسنا ، وأننا نشتهي أن نحمدها
بحقها أو بغير حقها ، وإنما تنكرها ونشتد في إنكارها لأننا
نستند إلى خير سند من الواقع الذي لا ريب فيه ، ولأننا نعلم
من هذا الواقع أننا سبقنا السابقين إلى ثقافة المعرفة وثقافة الحقيقة
قبل أربعين قرناً ، وأننا أعطينا العالم حظاً منهما لا يزول منذ
أربعة عشر قرناً ، وأن ما كان في ماضى الزمن غير مرة ليكون
غير مرة في الزمن القريب ، وفي الزمن البعيد .



للسنة الثامنة

الاشتراكية والشيوعية

على أدهم

الشمس

مطابع دار القلم بالقاهرة

١٨ شارع سوق التوفيقية